التمسك بالله

للدكتور صموئيل زويمر

نقله الى العربية

القس ابرهيم سعيد

صدر من مطبعة النيل المسيحية
شارع ابرهيم باشا رقم ٧٩ بمصر القاهرة
١٩٣٨

electronic file created by cafis.org

electronic file created by cafis.org

TAKING HOLD OF GOD
N. M. P. No. 808.

electronic file created by cafis.org

التمسك بالله

الفصل الاول

قِدَم الصَّلاة وعُمُوميَّتها

بما ان الصلاة هي اداة اقتراب الانسان من الله ، فهي جوهر الدّين بل قلبه . فلا دين بغير صلاة . حسناً قال شلاتر العالم اللاهوتي الألماني : «ان قضيَّة الدين هي قضيَّة الصلاة ، ونظرية الدين هي فلسفة الصلاة . فالصلاة العادية من أهم أركان الدين العاديّ ، والصلاة الصُّورية النافلة ، من مشتقات العبادة الصوريَّة الباطلة » .

ما أمتن الصلة الكائنة بين الصلاة والدين ؟ فقد اجاد نوفاليس اذ قال: « الصلاة للدين كالفكر للفلسفة » . فاليد التي تزيل الصلاة ، تقيم في الوقت نفسه نداً فاصلاً بين الانسان والغير المنظور ، وتزيل «الجسر» الذي يعبر عمر الابدية ، وتحرم الطبيعة وقلب الانسان من ترديد صدى صوت الله . فمتى انعدمت الصلاة ، انعدم معها الدين الحيّ »

هذا من جانب . ومن الجانب الآخر ، لا دين بغير صلاة . فالصلاة هي أقدم الفرائض عهداً وأوسعها انتشاراً . ويعتقد الكثيرون انها أقدم عهداً من الذبائح ، لانها أُسّ الذبائح في كل الديانات التليدة . فمنذ العصور

electronic file created by cafis.org

الأولى ، بدأ الناسُ « يدعون باسم الرب » . فالصلاة أمر فطريّ غريزيّ . وكما ان جناح الطائر يتطلب الطيران ، وزُعنفة السمكة تنشد الماء ، كذلك غريزة القلب تتجّه الى الله . حسناً عبَّر جورج ماثيسون عن اشواق البشرية أجمل تعبير في صلاته قائلاً :

« قلبي مفتقرٌ اليك ، يا ربي . قلبي مفتقر اليك ! ما من عنصر في كياني يفتقر اليك افتقارَ قلبي . فكل ما في باطني عداه — قد يقنع بهباتك : جوعي يشبعه القوت اليومي . وعطشي يرويه الماء الارضيّ ، وبردي يطرده نار الموقد . وتعبي تزيله الراحة الخارجية . ولكن ما من شيء خارجي يقوى على تطهير قلبي . فأهدأ يوم يعجز عن تهدئة ميولي الجامحة الثائرة ، واجمل منظر يتعذر عليه تجميل نفسي ، واعذب موسيقى لا يمكنها ان تدخل الى أعماق نفسي . فالنسيم العليل ينقي الجوّ ، لكنه لا يقدر أن ينقي الروح ،،

« ان هذا العالم لم يُدخل قلبي في حسابه . فقد حسب حساباً لعيني ، واذني ، ومبضعي ، وذوقي ، واحساسي بالجمال — لكنه لم يحسب قط حساباً لقلبي . فدّبر اللهم ما تراه لازماً لقلبي . وأمدّه بما اليه يصبو ، فهو الطائر الوحيد السَّليب الجناح ، في هذا الوجود . فهب له اللهم من لدنك أجنحة »

فكما ان الطائر العديم الجناح ، والسمكة السليبة الزعنفة ، يُحسبان من الخلائق البشعة في دائرة الطبيعة ، كذلك يُحسب الانسان العديم الصلاة ، في دائرة الروح . فلن نبلغ المستوى الطبيعي الذي أراده الله لنا ، الا في الصلاة .

electronic file created by cafis.org

« فارتفعي اذاً يا نفسي وأبسطي جناحيك » لان الانسان مولود للصلاة . فاليونان يطلقون على الانسان كلمة : « انثروبوس » ويعلل بعضهم هذا بقولهم ان الانسان هو الكائن المتجه نحو الله .

مهما تنوعت الصلاة عند الامم الساذجة في صيغتها وشكلها ، فهي عمومية في حقيقتها. فلا يوجد شعب طوّحت به البداوة والسذاجة الى درجة بَعُد فيها عن الصلاة . ففي كل عصر ومصر استنجد الناس بآلهتهم وسكبوا امامهم احتياجات نفوسهم .

والباعث لعمومية الصلاة ، يُعزى الى أمر من اثنين — احدهما خارجي ، والثاني داخلي . فالبشر شرعوا في الصلاة وواظبوا عليها ، إما لان طلباتهم أجيبت فنالوا البركات التي كانوا يبتغون ، او لانهم شعروا بحافز داخلي يدفعهم الى الاتصال بالغير المنظور ، على حد قول اغسطين : « اللهم ! لقد خلقتنا لذاتك . فلن تجد نفوسنا راحة الا اذا استراحت فيك » .

هذه الحقيقة ليست مقصورة على الذين لهم بعض الالمام بالكتاب المقدس ، ممن عرفوا ان يسوع المسيح هو ابن الله ، لكنها تتناول جميع البشر ، لان الله خلقهم على صورته تعالى وعلى شبهه .

من أقصى الاقاصي تحن اليك القلوب
وهي لا تدري كيف اليك تثوب
والدمع ينسكب عند موطىء قدميك
من قلوب لا تجد راحتها الا بين راحتيك

ليست حقيقة الصلاة عمومية بين الامم البادية فحسب ، لكن الدليل

electronic file created by cafis.org

يأتينا تلو الدليل على ان صلوات الامم في بداوتها موَّجهة الى ذاتٍ عليَّة . ولدى التأمل في صلوات الامم الغابرة يتبين لنا ، ان الاعتقاد بوحدانية الله كان سابقاً للاعتقاد بتعدد الآلهة ، كما يدل على ذلك تاريخ العبادة في الصين ، والهند ، ومصر في غابر الدهور

والامم الرجعية ، كالهنود الامريكيين في جنوب أفريقيا ، يوجهون صلواتهم الى الروح الاعظم . وفي جزائر البحر الجنوبية و بعض القبائل الجبليَّة التي تقطن بلاد الهند ، يلقبون الروح الاعظم بـ « أب الجميع » .

ان دراسة الديانات الغير المسيحية قد اسفرت عن هذه الحقيقة وهي ان الله لم يترك نفسه بلا شاهد في كل الامم ، وان نعمته العامة المشتركة انسكبت في قلوب البشر في بيئآت لم تستنر فيها النفوس بنور الانجيل

فالصلاة في الواقع اقدم من السحر واعمّ . وها سجلات آثار الهند ومصر والصين و بابل و بيرو والمكسيك ، محتفظة بانواع كثيرة للصلاة . فالصلاة اذاً ، مكونة عنصراً اساسياً في آثار الأدهار . ولكن لا يفوتنا ان نذكر ان البشر في الأزمنة الغابرة كانوا يعبّرون عن مشاعرهم الدينية بما يتفق والمثل الادبية العليا التي كانوا يدينون بها . من أجل هذا لم يستطيعوا ان يتصوروا المعبود الا في صورة يشو بها الشيء الكثير من ظلال معتقداتهم الخرافية ولكنهم عبّروا عما يخالج وجدانهم بصلوات وجّهوها الى القوى الغير المنظورة

واذ ندرس صلوات الأمم الوثنية المعاصرة ، نلمح علائم التخشع والتعبد منطبعة على العابد . هذه حقيقة لا يسعنا ان نتغاضى عن دلالتها النفسية.

electronic file created by cafis.org

فالوضع الجسدي الذي يكون عليه المصلي الوثني ليس بالوضع المألوف . لان رجال هذه الأمم ، يرفعون ايديهم او اذرعهم . وهم منبطحون على الأرض ، ويخلعون نعالهم او ملابسهم ، ويغطون رؤوسهم او يكشفونها . وهم يستعملون اشارات خاصة كاشارات التحية عند ما يصلون . وهم لا يقصدون بهذا ان يقوموا بحركات سيمائية او سحرية . لكنهم يعبرون بهذه الحركات والاشارات عن تخشعهم وتهيبهم في حضرة الروح الكليّ الغير المنظور الساكن في العلاء الذي خلعوا عليه صفات مشتقة من مثلهم الأدبية العليا التي يدينون بها

غير انه لا يُستفاد من هذا ان كل هذه الصلوات موجهة الى « الاله العلي » ولا الى « الروح الاعظم » . ولكن يؤسفنا ان نقول ان جل هذه الصلوات موجهة الى اله البرية او اله البحر او الى الآلهة الاصغر شأناً التي تسكن بين ظهرانيهم . وهم ايضاً يوجهون صلواتهم الى تماثيلهم وأصنامهم ومعبوداتهم التي تسود بيئاتهم . فإما إنهم يستنجدون بأجدادهم او يستجدونهم فدية عن أرواحهم بتقدماتهم وصلواتهم . وعلى الرغم من ذلك ، لم يفارقهم الاعتقاد بالاله المطلق المتعالي

وبين بعض قبائل الهنود قوم يترنمون بالصلاة الآتية :

«يا بورابنر (اسم الههم) يا من خلقتنا وخلقت فينا التجوّع . اذكر هذا واستجب صلواتنا . وعند ما نخرج في الصباح الباكر ، لنزرع ، احمنا من النمر والافعى . واحم حبات غلاتنا من الطيور . يسرّ الطريق أمام محاريثنا في قلب الارض واكثر غلاتنا ، وزد عدد مقتنياتنا »

فهذه البساطة وهذا الاتجاه المتضمنان في سجل صلوات الديانات الغابرة

electronic file created by cafis.org

يذكرانا بالصلوات المسجلة في العهد القديم . وجل الطلبات المتضمنة في كل تتناول البركات الزمنية . واليك الصلاة التي فاه بها أحد زعماء القبائل الوثنية في افريقا :

« يا مبامبا ها قد حجزت عنا المطر ، فجد علينا به لئلا نموت . احفظنا من موت القحط والمجاعة فأنت أبونا ونحن اولادك الذين خلقتهم أيرضيك ان نموت ؟ امنحنا خبز الكفاف . لقد منحتنا أرجلاً للمسير، اذرعاً للعمل ومتعتنا ببركة البنين . والآن هب لنا مطراً ليكون حصادنا وفيراً »

على ان صلوات الوثنين ليست مقصورة كلها على البركات الزمنية لكن بعضاً منها يسمو الى المستوى الروحي والادبي فنرى من خلاله تجوع النفس وتعطشها الى ماهو أعلى وأسمى. فبين قبائل افريقيا الشرقية، توجد قبيلة تقدم الصلاة التالية بين أدعيتها المسائية :

« اليك اللهم نفزع ، وبك نستعين . فلا تتباعد عنا »

وقد اعترف المكسيكيون الاقدمون على رغم فظائعهم الكثيرة، بوجود كائن عليّ ، وخاطبوه باعتبار كونه «الاله الغير المنظور ، الروحيّ ، الكامل، الطاهر ، الذي تحت جناحيه يحتمون ويجدون خير سلوى وسرور » .

حتى قبائل الهتنتوت في جنوب أفريقيا يلقبون « الروح الاعظم » بـ «آب كل رؤسائنا وزعمائنا». واليك أدعية احدى القبائل الهندية «يا ربنا يا أمنا ويا أبانا رب التلال والوديان» . ما أبعد كلماتهم — وما اقربها — في نفس الوقت، من كلمات المسيح في الصلاة الربانية: «أبانا الذي في السموات»

electronic file created by cafis.org

وهيلر، أحد كبار المؤلفين في موضوع «الصلاة» خصص أكثر من مئة صفحة في كتاب له عن صلوات الامم البائدة. وفيه بحث علة صلواتهم وبواعثها وصيغتها والآلهة الموجهة اليها. ومع أن الباعث الاولى على الصلاة هو الاستغاثة، الا انه باعث حقيقي. وهاك بعض ما قاله هيلر:

« لقد تعود الانسان في دور البداوة أن يتخذ في الصلاة نفس الاتجاه الذي يتخذه عند مخاطبته سيداً أو رئيساً. ويتوشح في الصلاة بنفس الاحساسات التي تختلج في نفسه لدى الاهل والاقربين، لانه كان ينظر الى القوى العليا التي يصلي اليها نظرته الى آبائه وأجداده. فبكل صراحة واخلاص كان يعبر عما يخالج نفسه «ويسكب قلبه» بكل ثقة واطمئنان — اعتقاداً منه أن الله ليس بأجنبيّ عنه لانه بقلبه أدرى. وهو يحبه من كل قلبه لانه ذاق حلاوة صلاحه وجودته. من أجل ذلك نراه يثق به ثقة تامة من غير قيد ولا شرط ».

قد يرى في هذه التعبيرات بعض المبالغة. لكن اذا كانت الصلاة هي السلم التي تربط الارض بالسماء، واذا كان الانسان المصلي متصلاً بعالم الغيب وعالم الشهادة، والرجل الغير المصلي مرتبطاً بعالم واحد فقط، واذا كان رجل الصلاة يرفع نظره ويوجّهه الى ناحية بعيدة عن ذاته، فيصلح حاله ومآله، فلا حرج علينا من الاعتقاد بان الصلاة هي احدى الوسائل لتقوية مشاعر الامم المتوحشة وتدريبها على الشجاعة، وانماء بزرة الايمان في قلوب بنيها.

والصلاة عند الاغريق — اليونان — كانت متغلغلة في حياتهم العامة والخاصة. وكانوا يفرغون صلواتهم عادة في صيغ مختصرة كانوا يزعمون انها

electronic file created by cafis.org

ذات قوة سحريّة خفيّة. حسناً قال افلاطون : «كل عاقل يطلب مساعدة الالهة قبل البدء في أي عمل هام» . وحدثنا بلوطرخوس ، عن بريكليس الخطيب العظيم ، انه قبل القائه أي خطاب كان يطلب الى الآلهة أن تجعل كلماته نافعة وفعّالة .

ومنيكا الروماني ، ذلك الفيلسوف الذي عاش في بيئة وثنية أعترف بوحدانية الله عند ما صلى قائلاً :

« نحن نعبد ونمجد مبدع الكون ومصوره — الضابط الاعظم والمدبر الاكبر ، والحافظ الاجل — الذي فيه يقوم الكل ، الذي هو عقل الكون وروحه ، وهو مصدر الكل ، وبروحه نحيا ؛ إله كل القوات ، الاله الحاضر في كل زمان ، اله الالهة ، اياك نعبد واياك نمجّد »

فهذه المذابح التي اقيمت لآلهة مجهولة ، أو لاله عُرف معرفة جزئية ، أو للروح الاعظم الذي يرفرف على وجه عالم أخربته الخطية ودمرته ، انما هي توبيخ مجسم لنا نحن المسيحيين العديمي الصلاة ، ولتلك المسيحية الصورية البعيدة عن جوهر المسيحية وقوتها ، التي تشك في اقتدار الصلاة

منذ عامين تقريباً نشرت احدى المجلات الدينيه الواسعة الانتشار بحثاً استقرائياً عما اذا كانت الصلاة لاجل المطر تحسب امراً سخيفاً في عصر يسوده العلم كعصرنا الحاضر، لكن الدكتور كراب قد قدم خير جواب عن هذا السؤال في قاموسه عن لسان الوثنيين الافريقيين في أدعيتين جميلتين ، الادعية الاولى تُتلى وقت الحرث. والادعية الثانية تُتلى وقت الجدب والجفاف

« اللهم اليك نتوسل ونحن نزرع هذا الحقل ان تعطينا منه ما يسد

كفافنا. وها نحن نفلّح هذا الحقل كي ينبت غلات وفيرة وليكون حصاده عظيماً عند اكتمال نموّه »

ثم يبصق على فأسه ويقول « ايتها الفأس تعمقي في الارض المروية لتنبت انباتاً حسناً »

واليك الصلاة التي يتلونها لاستدرار المطر :

«اللهم جد علينا بالمطر لاننا في بؤس وشقاء . نحن نكدّ ونجاهد . لكننا نحن ذريتك . جد علينا بالسحب المليئة بالامطار ليشبع شعبك من غلات الارض . استجبنا اللهم لانك انت ابونا »

وللقارىء ان يحكم في مقدار التشابه الكائن بين هذه الصلوات وصلوات العهد القديم المرفوعة في اوقات القحط والجفاف . «كان ايليا انساناً تحت الآلام مثلنا وصلى صلاة ان لا تمطر فلم تمطر على الارض ثلاث سنين وستة أشهر. ثم صلى ايضاً فاعطت السماء مطراً وأخرجت الارض ثمراً» (يعقوب ٥:١٧و١٨)

من اقدم الصلوات واكثرها تأثيراً تلك التي رُفعت في وقت القحط ، وقد سطرت في الاصحاح الاول من سفر يوئيل . واليك ما قاله الاستاذ رو برتسن سمث عنها :

« كل عدد تتألق في سمائه لآلىء كثيرة. شجرة التين تجردت عن اوراقها فاضحت جرداء في وسط صحراء قاحلة . والعروس لبست مسوحها وهي تندب عريسها، والمخازن اضحت خاوية خالية، وقطعان الاغنام تشتت ايدي سبا من شدة القيظ والعطش فتفجّر قلب النبي بصلاة انبعثت من الصميم »

electronic file created by cafis.org

و بولس الرسول الذي كان قلبه قوي الاحساس سريع التأثر، نظر الى العالم الذي حوله واذا به « يتمخض و يتوجع و يئن ». و يقول كاتب المزامير ان الرب يسمع صراخ افراخ الغربان — مز ١٤٧: ٩ . فلا عجب اذا كان الاطفال وهم يصغون الى نعيب افراخ الغربان يقولون « ها الغربان تتلو صلواتها المسائية » ، او هي ترفع صوت الحمد والشكر لاجل كل لقمة من الطعام تصيبها . فنحن عائشون في جو مشبع بالصلاة ، فكل النسمات تحدث بمجد باريها و كل الخلائق تستنجد بخالقها وحاميها . حسناً قال هوشع بروح الوحي والالهام — لا بروح الشعر والوجدان — متكلماً عن الله :

«و يكون في ذلك اليوم اني استجيب يقول الرب . استجيب السموات وهي تستجيب الارض ، والارض تستجيب القمح والمسطار والزيت وهي تستجيب يزرعيل » (هوشع ٢: ٢١ و ٢٢)

electronic file created by cafis.org

الفصل الثاني

طبيعة الصلاة

تبين لنا من الفصل الماضي ان الصلاة هي اقدم، واعمّ، واعمق تعبير عن المشاعر الدينية . لكنها في الوقت نفسه من ادق الفعال والحالات النفسية التي يصعب على المرء ان يجيد وصفها . فهي تتحدى كل وصف وهي اوسع من كل تعبير، وادق من كل كلام، واعمق من كل لغة ينطق بها البشر . فالصلاة — كما قال احد المتصوفين في القرن السادس عشر — لا تقوم بطلبنا من الله ما نريد بل بما يريده الله منا. وقال بول رتش قبل وفاته بعامين، لصهره: «الصلاة يا بنيّ كما يريدها الله ان تكون، كلما فكرت فيها امتلأت نفسي خجلاً . وفي اعتقادي يا بنيّ ان الصلاة من كل القلب ومن كل القدرة ومن كل الفكر ومن كل الارادة، بالثقة الوطيدة ان الله يسمع صوتنا في المسيح فنعمل نحن ما هو مرضي امامه — الصلاة على هذه الصورة هي آخر معركة واخطر جهاد لنا في حربنا الروحية على هذه الارض » .

فالصلاة بحسب رأي هذا المفكر العميق والتلميذ الغيّور تتطلب كل قوى النفس وتستلزم لبس كل سلاح الله الكامل . الم يعلمنا بولس نفس هذا الحق اذ وضع الصلاة في مقدمة اسلحة الحرب الروحية المذكورة في افسس ٦: ١٠ — ١٨

فما هو جوهر الصلاة ؟ وما هي العناصر المتنوعة المتضمنة فيها ؟ وأي

electronic file created by cafis.org

اختبار تجتازه النفس عند ما يصلي الانسان الى الله ؟ لا جدال في ان الصلاة تتضمن الشيء الكثير غير الطلب . لكن الطلب هو قلب الصلاة . «اسألوا تعطوا . اطلبوا تجدوا . اقرعوا يفتح لكم» . هذا هو احد الدروس الاولية التي علمها المسيح في مدرسة الصلاة .

كم للصلاة من تعريف ! جيمس مونتجومري حشد اربعة عشر تعاريفاً للصلاة في ترنيمة مؤلفة من ستة اعداد . الصلاة شوق خالص ، الصلاة قد تكون تعبيراً صامتاً ، الصلاة نار خبيئة ، الصلاة تنهدة ودمعة ، الصلاة هي اتجاه النفس الى الله ، الصلاة أمر ساذج كلثغة لسان الطفل ، وهي في الوقت نفسه سامية كجلال الله وسموه ، هي صرخة الابن الضال ، هي نسمة النفس ، هي هواء الجبل العليل ، هي كلمة السر عند الموت ، هي مفتاح السماء ، وهي سبيل مخلصنا . فالتأمل في هذه الاوصاف المنوعة يقودنا الى كشف كنوز مخبوءة في الكتاب المقدس عن الصلاة .

وجورج هربرت الشاعر القديس المتوفي سنة ١٦٣٣ نظم قصيدة في معنى الصلاة ضمنها النعوت الكثيرة ، التي تثير تفكيرنا واهتمامنا . واليك بعض الاوصاف التي خلعها على الصلاة :

« الصلاة هي وليمة الكنيسة وهي حياة الملائكة
هي نسمة القدير في الانسان تعود الى الله من حيث بدأت
هي خير مترجم عن النفس والقلب في غربة الحياة
هي صدى صوت حياة المسيحي مرتداً من الارض الى السماء
هي مخزن القوة المقتدرة وملجأ الخاطىء الأثيم

electronic file created by cafis.org

هي الرعد المختزن وهي الحرية التي تطعن جنب المسيح
هي خلاصة الأيام الستة مركزه في ساعة واحدة
هي اغنية واحدة تتجمع فيها كل الانغام من طارفة وتليدة
هي الحنو والسلام والبهجة والفرح والمحبة والرجاء
هي المن السماوي الذي يشبع و ينعش و يبهج
هي السماء متمشية على الارض فتمجد الانسان وتكلله
هي طريق المجرة في الفلك الروحي وهي عصفور الجنة
هي نواقيس الكنيسة يدوي صوتها ا ما وراء السُّحب» .

هذه العبارة الاخيرة ذات أثر جليل الخطر . فلا يكفي ان نصلي بالروح بل بالذهن ايضاً .

في الاصحاح الرابع والستين من اشعياء — وهو أحد الخمسة الاصحاحات المهمة بين دفتي الكتاب المقدس التي تبحث في الصلاة — نلتقي بتعريف مناسب عن الصلاة ، ولعله يفوق كل تعريف آخر في السمو ، والدقة ، والجرأة . فبعد ان قال النبيّ : « منذ الأزل لم يسمعوا ولم يصغوا . لم ترَ عين الهاً غيرك يصنع لمن ينتظره» ، اقدم على الاعتراف بخطاياه وخطايا شعبه قائلاً : « قد صرنا كلنا كنجس وكثوب عِدَّة كل اعمال برنا » . من ثمَّ قدم لنا في العدد السابع خير تعريف للصلاة : « وليس من يدعو باسمك او ينتبه ليتمسك بك» . هذا تعريف جريء . فالعبارة الاخيرة كما وردت بالعبرية تصوّر لنا انساناً مستيقظاً من نومه ليتمسك بالله . ولا جدال في انه ليس تمسكاً باليد الجسدية كما يفعل الوثنيون حينما يقبضون على نواصي أوثانهم

electronic file created by cafis.org

ليستدروا من ايديها المراحم المزعومة . لـكنه تمسك الانسان المستعطف — كدتُ اقول المستميت — المتعلق بالله بكل ما في نفسه الباطنـة من سواعد مستديرة وقبضة قوية ، و بكل ما في عقله من حجج دامغة مقنعة

فلا غرو اذا كان بولس يصف اشعياء بالجرأة والاقدام . فالنفس البشرية بائسة مسكينة لـكنها تقوى على التمسك بالروح الازلى القدير الغير المحدود

« كلِّمهُ أنت . فهو اليك مستمع ، والروح بالروح تتلاقى . فهو اقرب اليك من نسمتك وألزق اليك من يديك وقدميك »

هذه هي فلسفة الصلاة — هي تجاوز النفس عن نطاقها الذاتي وامتدادها الى الله، وشركتها معه واتحادها به كما هو معلن في المسيح بالروح القدس. الى المسيح كانت ترمز سلّم يعقوب التي عليها ارتقت نفسه وتسامت الى حضرة الله. فاذا لم تكن الصلاة المسيحية ذلك، وَجَبَ أن تكون كذلك . ليست الصلاة مجرد «اسمى ترويض لمَلَـكات العقل الانساني » وكفى بل هي ايضاً اسمى ترويض لعواطف الانسان ، وارادته ، وذاكرته ، وتصوراته ، وضميره . فـكل قوى النفس الانسانية تجد في الصلاة وحدها أوسع مجال عملي اخلاقي . فالانسان العديم الصلاة ، انما هو عديم التدُّين وملحد بكل معنى الـكلمة . وتعبد الانسان المصلي يقاس بمقياس صلاته . هذه حقيقة وان انطبقت على كل الديانات الالهية ، فهي بنوع اخص تنطبق على المسيحية

فأول كل شيء يجب ان نتمسك بالله، بكل فكرنا . فأسرار الفداء التي

electronic file created by cafis.org

تشتهي الملائكة ان تطلع عليها ، خليقة بان نتمعن فيها جيداً ونحن على ركبنا جاثون. «لذلك» — كما يقول بطرس الرسول — «يجب ان نمنطق احقاء ذهننا صاحين » كي نستطيع ونحن جاثون ان نعرف الله — أقصد ذات الله لا الطبيعة التي هي رداؤه ، ولا الانسان الذي هو صورته ، ولا القديسين الذين هم خدامه — بل الله نفسه . فبترويض اذهاننا المستنيرة بروحه الاقدس نبذل كل الجهد في تفهّم ذاته وصفاته فنمجده ونعبده على خلقه أيانا ومحافظته علينا. حسناً قال داود في المزمور المئة والرابع: «يارب الهي . قد عظمت جداً. مجداً وجلالاً لبست». ناهيك عن الفصول الكثيرة الموجودة ضمن دفتي سفر أيوب وكثير من المزامير التي تحدثنا عن عبادة الرب وتمجيده بكل الذهن

بامكاننا ان نتمسك بالله بكل اذهاننا متى ذكرنا طيبته وصلاحه . فالشكر يقوم بترويض الذاكرة في بستان بركات الله علينا . ومخيلتنا تُذكى بنار التأمل في فيض محبته وجلال مجده ، وعجائب مخلوقاته، وعظمة شدة قوته. بمثل هذا التأمل ، يتاح لنا أن نسترد ذلك الفن الجميل الذي اضعناه — اعني فن اللهج بالله : « كما من شحم ودسم تشبع نفسي و بشفتي الابتهاج يسبحك فمي . . . اذا ذكرتك على فراشي في السهد الهج بك » . فالنفوس الهزيلة تسترد عافيتها ونشاطها اذا ما تدربت على هذا الفن الضائع . ان الخجل يغطي وجوهنا عند ما نذكر الوقت التافه الذي نبذله في اتقان هذا الفن الجميل

ان الحالة النفسيه التي تتطلبها الصلاة تتناول التمسك بالله بكل عواطفنا وميولنا، واعمق مشاعرنا الدفينة . كل هذه العناصر متضمنة في صلوات داود: التخشع والخشية، والحزن، والفرح، والحب ، والبغضاء، والغيرة، والالم — فان

electronic file created by cafis.org

أحسنا التصرف بهذه العناصر امكننا ان نوجد لها افضل مجال في الصلاة السرية . و يقيننا ان خير علاج للرياء — هو التمسك بنبع البساطة والاخلاص — الصلاة السرية . هذا ما قصده داود بقوله «اسكبوا قلوبكم قدامه» . بهذا يُنتفى الزَبد و يذهب جفاء اما الحق فيثبت راسخاً . ولقد أشار بولس الرسول في رسائله مراراً الى الدموع التي سكبها على مذبح الصلاة . وقد احتفظت العصور المتأخرة بصلاة رفعها الاسقف اندروز يستدر بها الدمع اذ قال :

«جد عليّ اللهم بنبع في رأسي استدرّ منه الدمع . وهبني نعمة البكاء فيرطب قلبي المجدب بسحّ الدمع الغزير . اجعلني اللهم شريك داود وارميا و بطرس والمجدلية في سكب دموع الحنان والندامة . امنحني اللهم دموعاً فأسكبها عند قدميك لتجمعها في زقّك وتحفظها في سفرك الابدي »

ان الاعتراف بالخطية يجب ان يكون يومياً ومستفيضاً فيتناول كل دقائق الحياة ومخبآتها لاننا في حضرة الله الذي لا تخفى عليه خافية . حسناً فعل واضعو «كتاب الصلاة العامة» اذ استهلوه بالاعتراف . وكل من يقرأ كتاب يوحنا بنيان عن : «النعمة التي غمرت اكبر الخطاة» وكتاب اندروز عن : «تعبده السري» . يرى الدموع ملطخة — اردت ان اقول معطرة — كل صفحة فيها . لان كلا المؤلفين كان من أبطال الصلاة

ومتى التهبت قلوبنا بنار حب ملكوت الله ، واضطرمت أحشاؤنا بغيرة مقدّسة لمجده الاسنى ، استطعنا أن نتفهم أسرار صلوات هنري مرتن الذي قضى مرسلاً في بلاد فارس ، وديفد برينارد الذي خدم هنود امريكا ، وان نشاطر — الى حد ما — ديفد لفنستون صلاته لاجل افريقا ، وان نرقى الى

electronic file created by cafis.org

مستوى الشركة مع اندرو موري في تعبداته

حسناً تغنى احد الشعراء :

ما أعجب القلب

فهو وان يكن بلا عين

الا انه قوي البصر يخترق حجب الظلام والغيب

و يتخطى الى ما وراء العنان

ليس للقلب يدان

لكنه يحس بلمسة الحب

فما كل الايادي التي في الاكوان

باكثر حساسية من القلب

ليس للقلب من قدمين

لكنه سريع الخطى

فيرتقي تارة الى أعلى عليين

و يهبط طوراً الى الهاوية الدنيا

فما أعجب القلب

فهو أعجب من الرأس

فبعد أن يدفن الجسم في التراب

ينتعش القلب و ينتصر على ظلمة الرمس

نعم الصلاة هي كل ذلك،وهي أيضاً اعظم من ذلك.نعم هي خيرُ مروّض لملكات العقل والعاطفة،وهي فوق ذلك خير مروض ومدرب للارادة. فقد

electronic file created by cafis.org

وهبنا الله قوة الاختيار ليس في حال الانقياد والتأثر ، بل في حال القياد والتأثير. ليست ارادة الله وسادة ناعمة تتوسدها نفوسنا المعيية ، لكنها مصدر للقوة ينشىء فينا قدرة على الخدمة . ان ارادة المسيحي في الصلاة ، بعيدة المدى لانها تتصل بالسماء في نبعها ، و بالارض في قوة فاعليتها . لما صلى دانيال ، حرضت صلاتة رؤساء الملائكة على العمل . والصلاة الحقة تحرك القوى الالهية، وتوقف تيار القوى الشيطانية بدرجة لا يمكننا أن ندرك كنهها الا متى بلغنا ملكوت الانوار والمجد

الصلاة الحقةُ تكسبنا على قدر ما ننفق في سبيلها . فالخطوة الجديدة التي نتقدمها الى الامام هي ذات الاثر الفعال في الصلاة.وهي التي يحسب لها كل حساب في خدمتنا ، « ثم تقدم قليلاً وخرَّ على وجهه وكان يصلي» . فهذا القليل الذي نتقدمه في صلاتنا هو الذي يستدر علينا الخير العميم والفيض العظيم

ان الصلاة لاجل الآخرين شبيهة بحرب شعواء. شديدة اللظى، حامية الوطيس . فما أحوجنا الى «لبس سلاح الله الكامل» في هذه الحرب الروحية المقدسة،لاننا انما نتصارع في الخنادق ضد قوات الظلام.ولكننا عندما نكون على ركبنا جاثين، نصبح ملوكا وكهنة لله في ملكوت لم يحلم بمثله نابليون ، ولم يخطر شبهه لبال الكساندر . وفي مقدمة هؤلاء الملوك الغير المتوجين نرى هدسون تيلر ، وجورج موللر

والمخدع الذي نخلو اليه في صلاتنا اليومية هو خير ساحة لترويض عضلات النفس الروحية . فلقد اجاد الدكتور كارل هيم ، الاستاذ بجامعة توبنجن بالمانيا اذ قال عن الصلاة في كتابه : « النظام الالهي » :

electronic file created by cafis.org

« من لزوميات الصلاة أن تمتلىء يقيناً بان كل تاريخ العالم — من النجوم في افلاكها ، والنمال في مدابها — كائن في قبضة الله كقطعة من الطين المرن في يد الفخاري . فهو يصنع ما يشاء . فما من عصفور يسقط الى الارض بغير اذنه تعالى »

«سواء أبقي شكل العالم كما هو أم تغير فليس هذا نتيجة مصادفات طارئة أو ضرورات مسببة، «لكنه يرجع الى ارادة الله وكل ما يصادفني أو يصادمني في يومي أو في غدي ، لا ابحث عن علته في عوامل ميته ولا في نواميس طبيعية جامدة، ولا أعزوه الى بشر ضعاف مثلي ، ولكنني أنسبه الى المولى عز وجل . اني أراني واقفاً بين تيارين أحدهما علوي ، هو تيار محبته التي تجذبني اليه وثانيهما سفلي، هو تيار قوى العالم المعاكسة التي تسبيني لتبعدني عنه. وما سائر الاشياء التي تلاقيني في حياتي سوى مظهر لاحد هذين التيارين

«فالصلاة اذاً — سواء أكان المصلي شاعراً أم غير شاعر — تفترض تعليل العوامل الطبيعية على الصورة سالفة الذكر. وكل مصلٍ ينظر الى تاريخ العالم نظرة باطنة فاحصة يرى فيه هاتين القوتين تتصارعان — الارادة الالهية القدسية، والارادة الشيطانية. فالمعجزات اذا هي تعبير لنصرة الارادة الالهية في هذه المصارعة الروحية . وكل مصل يعلم ان هذه النصرة ممكنة في أي وقت وفي اي موقف »

فمن واجبنا أن نضع كل هذا نصب أعيننا لنستوعبه ، حتى يتبين لنا الخيط الابيض من خيط الاسود في طبيعة الصلاة ومعناها ، وفي الميدان الروحي الذي تكون فيه الصلاة مقتدرة كثيرة في فعلها

electronic file created by cafis.org

الفصل الثالث

مكان الصلاة والوضع اللائق بها

مع ان الصلاة جائزة في كل مكان ، الا ان كل الامكنة في هذا الباب ليست على السواء . فمن الجهة الواحدة يمكننا أن نطلق على الصلاة ذلك القول الذي خاطب به الله يشوع: «كل مكان تطأه بطون أقدامكم يكون لكم» . ولكن من الجهة الاخرى نقرر أن اختيار شعب الله في كلا العهدين — القديم والجديد — يؤيد هذه الحقيقة: وهي انه توجد امكنة أقدس من غيرها. إما لحلوتها ودلالتها أو لتذكاراتها والمواعيد المقدسة المرتبطة بها . نعم توجد أمكنة مقدسة يكون فيها العابد أعمق احساساً وادق شعوراً بحضور الله وقدرته منه في اي مكان آخر — امكنة اختارها الله في عنايته فكانت مهبط وحيه أو مسقط بركاته

فالاختيار الذي اجتاز فيه يعقوب في بيت ايل لهو خير مثال وأقوى برهان على أن أحجار الصحراء قد تمسي مذبحاً مقدساً تربطه بالسماء سلم يصعد الملائكة عليها وينزلون . والامكنة العادية المألوفة قد تكون محفوفة بتذكارات لا يمحوها كرّ الايام ، ومرّ العشيّ . بهذا أقر يعقوب اذ قال : «حقاً ان الرب في هذا المكان وأنا لم أعلم . . ما أرهب هذا المكان . . . ما هذا الا بيت الله . وهذا باب السماء »

في هذا العصر الذي تبلبلت فيه الافكار عن طرائق العبادة والمكان اللائق بالصلاة — سرية كانت أم جهرية ، يليق بنا أن نبحث بروح التمعن

electronic file created by cafis.org

المثل الاعلى للصلاة المسيحية كما قدمه لنا الرب يسوع. ففي الحوار الذي دار بينه وبين السامرية (يوحنا ٤:٧—٢٦) نراها تحاول ان تستخلص من المسيح فكرته عن الصلاة فأشارت بطريقة خفية الى الجدل القائم بين السامريين واليهود عن مكان الصلاة والعبادة، متسائلة عن أي المكانين اكثر صلاحية وقدسية للصلاة، جرزيم ام أورشليم ولعل تلك السامرية لم توفق الى السؤال الصحيح لان السؤال المهم ليس **أين** نعبد، بل **كيف** نعبد—بالروح والحق ، **ومن** نعبد — الله أب الجميع الذي هو روح وهو طالب عابدين روحيين . حسناً قال احدهم في هذا الصدد :

« . . . . يتحتم علينا ان نذكر أنفسنا بان العبادة بالروح لا تعني بالضرورة ان نلقي كل المظاهر المادية جانباً كما تفعل شيعة الكويكرز . فالعنصر المادي في الصلاة لا ينافي الروحانية ولا هو عدو لها فقد يصبح « قدساً » ! ! انما الذي يناقض الروحي ، هو الصورية لا المادية . وهذا هو عنصر الضعف في العبادة اليهودية — الصورية .

ولكن لماذا نعتبر بعض الامكنة اكثر صلاحية واسمى قدسية واجل وقاراً واوفر استلهاماً للصلاة من سواها ؟ لثلاثة أسباب : خلوتها ، ورمزها ، وذكراها . فالصلاة السرية لا تكون حقيقية الا اذا كان المصلي على انفراد . « واما انت فمتى صليت فادخل الى مخدعك واغلق بابك وصل الى أبيك الذي في الخفاء » . هكذا فعل جميع القديسين على مر الاجيال اذ طلبوا وجه الله على انفراد . فابرهيم طلب وجه الله لما مالت الشمس الى المغيب . ودنا موسى من الله لما رأى العليقة تشتعل في قلب الصحراء القفراء . وارتقى ايليا

electronic file created by cafis.org

الى حضرة الله على قمة جبل الكرمل عند فم المغارة، وأشعياء رأى الله في سكون الهيكل، وجثا دانيال على ركبتيه وهو منفرد موليا وجهه شطر أورشليم، وتضرع بطرس الى الله على سطح المنزل في يافا، وتمكن شاول الطرسوسي من ان يرى الله على طريق دمشق الموحشة، وكان يوحنا «في الروح» في جزيرة بطمس المنعزلة، وخشع دافيد لفنجستون ساجداً في عشة قروية مصلياً الى الله حتى دعاه الرب الى حضرته وهو على هذه الحال. وفوق الكل الرب يسوع المسيح صلى منفرداً في البرية وهو وحيد على قمة الجبل، وحيد في جثسيماني، وحيد حين تركه الجميع وهربوا، وحيد وهو يصلي لاجل الجنود الذين سمروه على الصليب. فالوحدة الحقيقية في الصلاة هي الاختلاء مع الله. هذا كان مشتهى المسيح ومنتهى آماله في الصلاة.

فضلاً عن ذلك فان أفضل مكان للصلاة هو المكان الذي لنا فيه وعد بحضور الله معنا، وفيه صنع لاسمه ذكراً «في كل الاماكن التي فيها اصنع لاسمي ذكراً آتي اليك وابارك» (خروج ٢٠: ٢٤). فما احلى خيام الله وما ابهى مساكنه. ان يوماً واحداً في دياره خير من الف، حيث يصنع العصفور بيتاً والسنونة عشاً لنفسها. هناك كان يلذ لليهودي ان يقيم لله مذبحاً عليه يسكب نفسه امام الله. فالخيمة في البرية وفي شيلوه، وهيكل سليمان بكل مجده. والهيكل الثاني الذي أقامه عزرا. وذاك الذي اقامه هيرودس الاكبر — هذه كلها كانت امكنة مقدسة للعبادة التقى فيها الله بشعبه الامين فتجلى لهم فيها. «من يصعد الى جبل الرب ومن يقوم في موضع قدسه»، «اما بطرس ويوحنا فصعدا الى الهيكل ليصليا» — في كل يوم سبت

electronic file created by cafis.org

في المجمع اقتداءً بسيدها . « والعلية » كانت المكان المختار الذي اجتمع فيه التلاميذ في اورشليم مصلين بنفس واحدة طالبين حلول الروح القدس يوم الخمسين. تحدثنا الاجيال الغابرة ان «سراديب الاموات»، والاماكن المعتزلة، والكنائس، والكاتدرائيات، ومحال الاجتماعات الخاصة، قدمت ابلغ شهادة لصدق الوعد العظيم القائل « لانه هكذا قال العلي المرتفع، ساكن الابد، القدوس اسمه، في الموضع المرتفع المقدس اسكن ومع المنسحق والمتواضع الروح» (أشعياء ٥٧:١٥). فبيت الله الحق هو المكان الذي يعبده فيه شعبه. فلماذا اذاً تغلق أبواب بعض الكنائس طوال أيام الاسبوع، ولا تفتح الا ساعة وبعض ساعة في يوم الاحد فقط ؟

وهنالك عامل ثالث له دخل في قدسية مكان الصلاة ـ نعني به الذكرى. فالذاكرة تحتفظ ببعض المناظر والامكنة مثلما تحتفظ بالاشخاص والحوادث. جاء في الانجيل : « ومضى يسوع الى عبر الأردن الى المكان الذي كان يوحنا يعمد فيه اولاً . ومكث هناك . . . . فآمن كثيرون به هناك » . هذا هو المكان الذي كرز فيه يوحنا بالتوبة وهناك ايضاً اعتمد المسيح على رغم كونه معصوماً عن الخطأ فانفتحت السماء ونزل عليه الروح القدس بهيئة جسمية مثل حمامة وكان صوت من السماء قائلاً : « أنت ابني الحبيب بك سررت » . فلا غرابة اذا كان المسيح قد عاد الى ذلك المكان عينه فآمن به كثيرون هناك. وما من شك في ان تركيز الافكار من اكبر عون في الصلاة، بل هو قوة لا تقهر . قيل عن مسيحي غيور بسيط القلب انه بقي في الكنيسة بعد نهاية حفلة تذكارية اقيمت في الكنيسة التي اهتدى فيها الجنرال

electronic file created by cafis.org

وليم بوث رئيس جيش الخلاص ومؤسسه . فتقدم ذلك المسيحي الغيور الى المذبح وجثا على ركبتيه قائلاً : « اللهم اعد هنا ما سبقت فعملت . اعد ما سبقت فعملت ! ! »

فالمكان الاول الذي اعترفنا فيه بايماننا بالرب ، والمكان الاول الذي فيه اعتمدنا سواء أكنا صغاراً أم كباراً ، والمكان الاول الذي تناولنا فيه العشاء على مائدة الرب ، وفيه قطعنا عهوداً ومواثيق ، ونلنا بركات وغفراناً ، هذه كلها امكنة مقدسة بذكرياتها

حسناً رسم احد الشعراء بريشة خياله ولون بيانه ، صورة احد الجنود الذين نفذوا حكم الصلب فى فادينا المجيد ، لكنه فيما بعد رأى نفسه مضطراً ان يصلي صلاة بهذا المعنى :

« لقد تقامرنا على الثياب التي ارتداها
فكان حذاؤه من قرعتي
فألفيته مشوّهاً وممزّقاً من وعورة الطريق
التي تؤدي الى الجلجثة
فسترت به قدميّ القذرتين
وانطلقت في سبيلي
لكن هذا الحذاء استدرج قدميّ الى سُبُل لم اعرفها
فلم استطع ان امسك قدميّ عن المسير في ذلك الاتجاه
واذا بي امام مزرعة من الزيتون
وكان جوُّها مظلماً قاتماً فلم أرَ شيئاً

electronic file created by cafis.org

والفيتني انا الذي كنت احتقر الصلاة وازدريها
جاثماً على ركبتيَّ عند جذع إحدى الاشجار » .

هذا خيال شعريّ لكنه لا يخلو من حقائق جليلة رائعة . لانه ما من تأثير على العقل البشري اقوى من تأثير الذاكرة وارتباطها بحوادث الزمن . فلم يكن في وسع يعقوب ان ينسى ذكريات بيت ايل ، ولو حاول ان يجد الى ذلك سبيلاً . و بقوة الذاكرة استطاع تلميذا عمواس ان يميزا شخص المسيح عند ما رأياه يكسر الخبز أمامهما . و بقوة الذاكرة تمكن يهوذا الاسخريوطي من معرفة مكان سيده في البستان الواقع على طريق وادي قدرون ، لان سيده كان متعوداً ان يغشى ذلك البستان مع تلاميذه . فالمكان الذي يجتمع فيه المسيح بنا ، مهما تكن الظروف المحيطة بذلك المكان ، لهو خير موضع للصلاة . حتى داود نفسه ... «أعطى سليمان ابنه مثال الرواق و بيوته وخزائنه وعلاليه ومخادعه الداخلية و بيت الغطاء » (اي ٢٨:١١) . وسنرى فيما بعد ، كيف ان المسيح ابن داود الاعظم بل رب داود قد رسم لنا المثل الاعلى للصلاة . ومع ان روابي كثيرة ، وأمكنة مقدسة وفيرة ، قد ادركها القدم ، وعبثت بها أيدي الزمن مذ حدثنا عنها العهد القديم ، الا ان «السماويات » التي يحدثنا عنها العهد الجديد ما زالت مرحبة « بالعابدين الحقيقيين الذين يعبدون الله بالروح والحق»

ما زالت الفرصة مهيأة أمامنا لنعبد الله في هيكل مقدس فنرى رؤى مجيدة مثلما رأى زكريا ، او نمشي جنباً الى جنب مع داود بقلب فرحٍ ونفسٍ طروبة فنحج الى محافل القديسين ، او ان نتمتع بشركة مقدسة مع

electronic file created by cafis.org

جماعة الله المختارة في عليّـة صهيون منتظرين البركة الخمسينية ، او ان نرتقي الى ما فوق سطح المنزل فنشاطر بطرس رؤيته الجليلة، او ان نجثو على شاطىء النهر ساجدين وعابدين مع بولس ، او ان نصعد مع سيد الكل ورب الكل يسوع المسيح الى الجبال العالية لنتنسم نسيم السماء العليل . فلا غرو اذا قال رسول الأمم « أريد ان يصلي الرجال في كل مكان رافعين ايادي طاهرة بدون غضب ولا جدال » .

فالاشارة الى « الايادي المرفوعة» تدلنا على ان مكان الصلاة وهيئة المصلي مرتبطان ببعضهما تمام الارتباط في ممارسة الصلاة . وكل الأديان العظمى — غير المسيحية — تعير اهتماماً خاصاً للوضع الذي يكون عليه المصلي. وتضع في ذلك قوانين تفصيلية دقيقة . يتبين لنا هذا بنوع خاص في الاسلام حيث يجتمع جمهور المصلين صفوفاً صفوفاً في الجامع ويعبرون عن تعبدهم لله بحركات واشارات منسجمة لدرجة يخيل فيها الى الرائي انه أمام جيش ديني يتدرب تدريباً عسكرياً أقرب منه الى الرياضة الروحية . يضاف الى هذا ، ان الصلاة في كلا العهدين القديم والجديد مصحوبة على الدوام ببعض حركات جسمانية . ولعل أعم وضع كان يمارسه المصلي في العهد القديم هو الانبطاح على الأرض على مثال الانحناء الكلي الذي كان الشرقي يقدمه قديماً في محضر أحد الحكام المطلقين . يحدثنا حزقيال عن نفسه... «انه قام وخرج الى البقعة واذا بمجد الرب واقف هناك كالمجد الذي رآه عند خابور « فخرّ على وجهه » (حزقيال ٣:٢٤ ، ٩:٨ ، ١١:١٣) . والمسيح نفسه لما ذهب الى جثسيماني «خرّ على وجهه». والملائكة في المجد يخرون على وجوههم متعبدين لرب

electronic file created by cafis.org

الجلال والاكرام

والمصلي ان يقدم صلاته وهو جاثٍ على ركبتيه . هكذا فعل قديماً دانيال واسطفانوس و بطرس و بولس . ومراراً كثيرة يكون المصلي واقفاً . هكذا كانت حنة في الهيكل طالبة الى الله ان يهبها ولداً من لدنه . كذلك كان موقف سليمان يوم وقف مصلياً لأجل الجماعة ومباركاً اياها . كذلك ايضاً فعل ارميا حين رفع صلاته الى الله . زد على ذلك ان الفريسيين وتلاميذ المسيح والعشارين قدموا صلاتهم وقوفاً . وفي هذا يقول الدكتور مكفارك : « ارتاي بعضهم من باب الترجيح ان الصلاة العادية كانت تقوم سجوداً او وقوفاً باحناء الرأس والجسم عند مستهل الصلاة وعند ختامها . لكن الجلوس لم يُذكر سوى مرة واحدة — في صلاة الشكر التي قدمها داود (٢ صم ٧ : ١٨) وهي تعتبر من الشواذ ولعلها تُعزى الى ضعف داود وشيخوخته . لانها لا تحمل معها معنى الجلال والوقار اللازمين للمثول امام ملكنا السرمدي الغير المنظور الذي ندعوه ربنا والهنا

ان رفع الايدي نحو السماء أو تجاه اورشليم سواء أكان مصحوباً بالسجود أم بالوقوف كما في ١ أي ٦ : ١٣ خروج ٩ : ٢٩ ، ١ مل ٨ : ٢٢ و ٢٤ ، كان أمراً شائعاً لدرجة حُسب فيها مرادفاً للصلاة نفسها (مز ١٤١ : ٢) والظاهر أن العينين كانتا مفتوحتين في الصلاة كما يستفاد من قول البشير عن العشار : « وأما العشار فوقف من بعيد لا يشاء ان يرفع عينيه نحو السماء » (مرقس ٦ : ٤١ ، ٧ : ٣٤) وأما عادة الغربيين في اغماض العينين وقت الصلاة ، فلا ندري لها أساساً ، ولعل الشرقيين غير مجمعين على استعمالها دواماً . وليس من

electronic file created by cafis.org

المستبعد انها تطبيق معنوي لقول المسيح: «ادخل مخدعك وأغلق بابك». فكما ان الباب المغلق يحجب الانسان عن العالم الخارجي ، كذلك العين المغمضة تحجب العالم الخارجي عن الانسان

لكن ليس مكان الصلاة ولا الهيئة الجسمانية التي يكون عليها المصلي بالامر الاهم في الصلاة، غير انه من واجبنا ان نعيرهما شيئاً من العناية لان الصفاقة في الصلاة لا تساعد على تقوية الحياة الروحية. حسناً قال اغسطينوس الحكيم:

«في الصلاة لله يعبر المصلون عن رغبات قلوبهم وحالاتهم النفسية أمام الله بتحريك اعضاء الجسد وفق هذه الرغبات والحالات — فتارة يجثون بركبهم وطوراً يرفعون أيديهم ومراراً ينبطحون على الارض . غير ان الله في غنى عن هذه الحركات في ذاتها لانه يعرف خفايا القلب واتجاهاته. ولكن هذه الحركات تعين الانسان نفسه على التعبير عن اشواق نفسه الباطنة بكل حرارة وحماسة. ومع اني موقن ان هذه الحركات الجسدية تصدر عن الانسان تلبية لايحاء باطني صادر عن العقل، الا ان هذه الاحساس العقلي الباطني يتزايد بسبب هذه الحركات الخارجية ، وان كنت لا أدري كيف . وهكذا تصبح هذه الحركات الجسمانية محرضة ومقوية لاحساس القلب في حين قصد بها أصلاً ان تكون معبرة عنه . هذا فعل وتفاعل . ولكن اذا شعر احد الناس انه بسبب ضعف جسدي لا يقوى على تحريك اعضاء جسده وفق احساسه الباطني فلا يداخله الفكر ان انسانه الباطني متعطل عن الصلاة لان عيني الله تنظران الى الداخل فتلمحان التوبة الحقيقية الخفية التي بها تكون النفس منبطحة امام الله »

electronic file created by cafis.org

الفصل الرابع

عنصر الميقات في الصلاة

قد يتعجب البعض او يدهشون — ولعلهم يتعثرون — اذا سمعوا من رجال الله على مرّ الاجيال انه من الواجب على المرء أن يقضي ساعات متواليات في خلوته مع الله . ولكن عجبهم يبطل متى ذكروا المسيح نفسه والاوقات التي كان يقضيها في الصلاة . لقد كان معصوماً عن الخطأ وشبه الخطأ ، فلم يكن في حاجة الى الاعتراف بذنب أو خطية ، وكان على الدوام عائشاً في حضرة الله ومتمتعاً بجلال قوته ، لكنه بالرغم من هذا كان يسبق الشمس في طلعتها بساعات ليستمتع بطلعة الآب . وكان يقضي الليل كله في الصلاة لله . واذ كان في جهاد كان يصلي « بأشد لجاجة » . «وقال لهم أيضاً مثلاً في انه ينبغي أن يُصلى كل حين ولا يُمَلّ » . وعلمنا ان ابانا السماوي يمنحنا الروح القدس استجابةً للجاجتنا في الصلاة (لوقا ١١ : ١ — ١٣)

يحسن بنا قبل كل شيء ان نسأل أنفسنا عن ماهية الوقت ، حتى يمكننا أن نتعرف مقدار الوقت الذي نصرفه في الصلاة ، ولا مشاحة في أن ماهيـة الوقت في عصرنا الحاضر تختلف عنها في العصر الغابر . فالفلاسفة واللاهوتيون قد عالجوا مشكلة الوقت . فحدثنا احدهم قائلاً : « كل الالغاز والمعضلات مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمعضلة الوقت . فلو حللنا معضلة الزمن لانحلت أمامنا كل المعضلات المختصة بالفلسفة العقلية » . فالمتصوف والعالم كلاهما

electronic file created by cafis.org

متحير في تحديد النسبة الحقيقية بين الزمن والابد—أهي نسبة تتناول النوع أم المقدار أم كليهما معاً ! ؟ فهل الازل والابد هما مجرد امتداد للزمن أم هما فوق متناول الزمان والمكان ؟ قال الناس : « ان كل مدة من الزمن لها صلة راسية بالازل . وان الازل كائن فوق الوقت . فالوقت مليء بالابد على قدر امتلاء الذرة بالقوة » . فكل نقطة في الزمن قد تكون نقطة فاصلة بين أبديتين : «الآن وقت مقبول الآن يوم خلاص». فالساعة الحاضرة والدقيقة الراهنة لهما قيمة ذات اتصال بالأزل والأبد

فقيمة الوقت لا تُعرف خطورتها الا متى لاحظنا صلة الوقت بالأزل والأبد . وهذه الصلة غاية في الدقة لان الوقت يولي سراعاً

قال كارل هيم : «تتبين ميزة الزمن في أن كل دقيقة تمر لا تعود . ولن يمكن ان تُعاد . قبل حلولها كان كل شيء في حيز الامكان . أما وقد ولت فقد انقضى بها كل شيء وختمت الاسفار . ومن ورائها يقف الماضي جامداً لا يبدي حراكاً . لان التاريخ شبيه بمياه جارية ولكن متى مرت بنا حوادثه نصبح في حكم التماثيل التي لا تقوى على الحركة»

كل هذا له صلة وثيقة بالصلاة . فنحن في مسيس الحاجة الى الله كل لحظة . لاننا من لحظة الى اخرى محفوظون بعين رعايته . وما لم ننفق الوقت الطويل لنكون قديسين في هذه الحياة ، فلن تتاح لنا القداسة في الابدية . ومتى اردنا ان تكون حياتنا متصلة اتصالاً حياً وثيقاً بالله ، وجب علينا ان نصلي بلا انقطاع . فمن الواجب علينا ان نصلي دواماً ، لاننا محاطون بالاعداء من كل صوب ، ولان نيران التجارب تحيط بنا من كل حدب . ينبغي ان

electronic file created by cafis.org

نصلي كل وقت لاننا لا ندري في أي وقت تواجهنا المواقف الحاسمة في الحياة ولا في أي لحظة منها ينتهي الزمن الحاضر ليبتدىء الابد

فالصلاة في نظر كل قديسي العهد القديم والعهد الجديد — من يعقوب في فنوئيل الى بولس في سجنه الروماني — كانت جهاداً وصراعاً ضد اعداء غير منظورين . فعلى الجندي المسيحي ان يكون دائماً مصلياً ساهراً ، شاكي السلاح ، متحفزاً في كل دقيقة لكل هجوم يصوب ضده . كانت السيدة امي ولسون كرميكيل مرسلة مقدامة في بلاد الهند لكنها اصيبت بمرض خطير نتيجة حادث مفاجىء وقع لها عام ١٩٣١ . فكتبت كلمة عن خدمة صلاة التشفع ، جاء فيها : تحت عنوان : «من الورد الى النعش»:

«لا مهادنة في حربنا الروحية — ولا الى يوم واحد . فلا يمكن اعفاء جندي ولا اخلاء سبيله . قد يدعونا رب الجنود الى الخدمة في الميادين المنظورة، فنخلو باستمرار الى الميدان الغير المنظور ، لتتجدد قوانا ونقوم بالخدمة اللائقة بهذا الميدان. وقد يسحبنا من الميدان المنظور لنقصر خدمتنا على الميدان الغير المنظور . فمن الواجب ان تُمحى كلمة « رديف » من معجم الحرب الروحية . لاننا جنود ملك الملوك فيجب ان نكون مشهري السلاح على الدوام »

لنشهر أسلحتنا الى العلاء
وليقلع كل جندي عن الخمول
لان دعوتنا السماوية ، وقانون جنديتنا
يحرمان علينا أن نغمد سيوفنا في ورود الكسل

electronic file created by cafis.org

وهل من تفسير أفضل من هذه الكلمات يريق نوراً على قول الزبوري في مزمور ١٤٩ «ليبتهج الاتقياء بمجد . ليرنموا على مضاجعهم . تنويهات الله في أفواههم وسيف ذو حدين في يدهم»

وهنالك سبب آخر يدعو الى تخصيص وقت كاف للصلاة . ليس فقط لان الوقت وديعة ثمينة قصيرة المدى مسلّمة الينا . بل لان أهم الاشياء وأفضلها لا يمكن ان تُنجَز بعجَلة . فالصلاة تستلزم وقتاً كافياً لتكون صلاة بكل معنى الكلمة . فالعالم الطبيعي تسوده نواميس للنمو لا يمكن الوسائل الصناعية أن تتعجلها . فالشجرة المتأصلة جذورها في الارض التي تنمو مدى الايام والسنين مغتسلة بأشعة الشمس في النهار ومتعطرة بالندى في الليل، هي غير اليقطينة التي في ليلة تترعرع وفي ليلة تقطع . فما أحوجنا الى وقت كاف **قبل** الشروع في الصلاة لنشعر أنفسنا بحضور الله . ووقت **اثناء** الصلاة لنتحقق حاجتنا وحاجة العالم المحيط بنا ، ووقت **بعد** الصلاة لنتأمل في مراحم الله العجيبة ونشكره على ما وعد

ان الاستعداد للصلاة لازم لزوم الصلاة نفسها . فليس من الجائز لنا ان نقتحم الى محضر الله . وقع في يدي كتيب عن التعبُّد اسمه «دقيقة الله» ومع كل ما في هذا الكتيب من حقائق ثمينة وجليلة الا انني لا افهم لماذا يكتفي اولاد الله بأن يكرسوا لابيهم السماوي دقيقة واحدة ويقفوا الالف والار بعمئة والتسعة والثلاثين دقيقة الباقية على ذواتهم . والظاهر ان مشاغل الحياة الكثيرة ومطاليبها المنوعة قد الجأت البعض الى ان يحشروا صلاتهم

electronic file created by cafis.org

في لحظات معدودات. ولعل هؤلاء يكتشفون سراً غامضاً من ذلك الكاتب المجهول ، في صلاته المعروفة بـ «صلاة المطبخ» :

«يا رب كل الاواني والاوعية والامتعة. انت عالم باني لا املك وقتاً كافياً لآتي بالاعمال الجليلة التي يأتيها القديسون. ولا للسهر الطويل بين يديك ولا لكشف الرؤى السماوية ابان السحر . ولا قوة عندي تهز اعتاب السماء فاللهم صيّرني قديساً وانا أهيىء الطعام واغسل الاواني

فمع انه يجب عليّ ان اتحلّى بيدي مرثا، الا انني متجمّل بعقل مريم فحينما المع الاحذية ، اذكر حذاءك الذي جملته قدماك

وحينما أنظف الارض اذكر كيف دست أنت اديم الغبراء

فلتكن خواطري هذه مقبولة لديك يا ربي لاني لا املك وقتاً لمزيد »

وكما ان الاستعداد للصلاة يتطلب وقتاً كافياً ، كذلك أيضاً التأمل في الصلاة يستلزم وقتاً . ويقيننا ان الفرق بين المسيحي الفاتر وبين القديس هو ان اولهما يلفظ صلاته على عَجَل ، والثاني يقضي وقتاً كافياً منتظراً الرب ، فيسكّت قلبه امام الله ويسكبه لديه فيطهّر ما فيه من زغل ودنس . ومن المحال ان يحصل المؤمن على قنية القلب المنكسر وهو يلفظ صلاة صورية امام الله او يكرر صلاة كان قد سبقه غيره في رفعها الى مولاه . فضلاً عن ذلك ، لن يُتاح لنا ان نتعلم صبر الصلاة الغير المستجابة ما لم نقض وقتاً طويلاً امام عرش النعمة مراراً وتكراراً . حسناً قال اغسطينوس : « ان الله صَبُور لانه سرمدي ». وما لم نتدرّب على الصبر والتأني في الصلاة ، لا يمكننا ان نتدرّب على مصادقة خالقنا وفادينا. ولقد أجاد احد المتصوفين المعاصرين اذ قال:

electronic file created by cafis.org

« لو انصرفنا بكلّيّاتنا وجزئياتنا الى الصلاة المنظّمة مدة اسابيع قليلة ، لملكنا العجب من فرط ما ينكشف لنا من ضعفاتنا وجهلنا بأوليات ديننا ، ومن عدم تنظيم اتجاهنا الروحي » .

الصلاة هي ترويض عضلات النفس . فاذا ابتغينا النموّ في النعمة والمعرفة ، وجب علينا ان نعكف على هذه الرياضة الراقية .

وبما ان لكل شيء زماناً ولكل أمر تحت السموات وقتاً ، فقد يجمل بنا ان نسأل عن أنسب الاوقات للتأمل ، والصمت ، والحمد والتمجيد والاعتراف والتشفع ، ونحن في زحام هذه الحياة مثقلون بشواغلها المنوعة . فاذا القينا هذا السؤال على دانيال لعرفنا انه كان « يجثو على ركبتيه ثلاث مرات في اليوم ويصلي ويحمد قدام الهه » (دانيال ٦ : ١٠) . ولو القيناه على داود لاجابنا انه « مساء وصباحاً وظهراً كان يشكو وينوح أمام الهه فيسمع صوته » (مزمور ٥٥ : ١٧) . واليك ايضاً جواب مرنّم آخر : « سبع مرات في النهار سبحت الله على احكام عدله » (مزمور ١١٩ : ١٦٤) . وفي العهد الجديد يوصينا بولس ان نصلّي بلا انقطاع وفي كل حين . ويحدثنا كاتب سفر الاعمال ان بطرس كان متعوداً ان يصلي في الساعة الثالثة ، والساعة السادسة ، والساعة التاسعة . وفي مزمور ٦٣ : ٥ و ٦ نسمع داود مترنماً : « كما من شحم ودسم تشبع نفسي وبشفتي الابتهاج يسبحّك فمي . اذا ذكرتك على فراشي . في السهد ألهج بك » . ويعرفنا تاريخ الكنيسة ان القس جون أحد خدام كنيسة الروم الارثوذكس كتب كتيباً عن كيفية تكريسنا لكل يوم قال :

electronic file created by cafis.org

« حالما تنهض من فراشك قل : « باسم الآب والابن والروح القدس استهل يوماً جديداً ، عند ما استيقظ اشبع بشبهك ». وعند ما تغتسل ، قل: « اغسلني من خطايا الليل فأتطهر . اغلسني فأبيضّ اكثر من الثلج » . وعند ما ترتدي رداءك قل: «قلباً نقياً اخلق فيّ يا الله والبسني الرداء الكتاني النقي الذي هو تبرُّرات القديسين » . وعند ما تقدم على طعام الافطار الذي به تقطع فترة صيام الليل، تفكّر في الوقت الطويل الذي قضاه المسيح صائماً وباسمه تناولْ طعام الافطار ببساطة وابتهاج قلب . وعند ما تتجرع الماء او تشرب الشاي تفكر في العطش المحرق الذي عاناه فاديك في أعماق نفسه . وان اردت ان تسير ماشياً او راكباً براً او بحراً او جواً ، فعليك ان تصلي قبل كل شيء الى الرب ليحفظ دخولك وخروجك . واذا هاجت عليك عاصفة ، تفكر في العواصف النفسية التي تجتاح نفسك ونفس سواك . واذا كنت طالباً او استاذاً او ضابطاً او موظفاً او مصوراً او صانعاً فاذكر ان خير فن عليك ان تلمّ به هو ان تكون خليقة جديدة في المسيح يسوع. في كل يوم وفي كل مكان جاهد ان تُنمي هذه الخليقة الجديدة التي هي أنت . اعمل بكل قوتك في العمل الذي دعيت اليه — ولكن قبل كل شيء وابان كل شيء تمم خلاصك بخوف ورعدة .

حدثنا السير توماس براون مؤلف كتاب « الطب الروحاني » على رغم ازدحام وقته بأعماله الطبية الكثيرة — قال انه كان يصلي كلما رأى كنيسة او دخل شارعاً . وشارلس سيمون كرس أربع ساعات من كل يوم للصلاة ، وشارلس وسلي افرز ساعتين يومياً لهذا الغرض عينه . والاسقف

electronic file created by cafis.org

لانسلوت اندروز تعود ان يصرف خمس ساعات كل يوم في الصلاة والتأمل. كان معاصراً لشكسبير وكان احد اعضاء اللجنة التي وضعت للكتاب المقدس تلك الترجمة الانجليزية المعروفة بترجمة الملك جيمس. وكان جو حياته مفعماً كله بالصلاة ، كما يستدل من كتابة الخالد القيم المسمى : « تأملاتي السرية » . وفي سنة ١٩٠٥ اشتريتُ من مدينة بومباي نسخة من هذا الكتاب من الطبعة التي اشرف على مراجعتها الدكتور الكساندر هويت فانتفعت بها في فرصة صلاتي السرية اكثر من أي كتاب آخر بعد الكتاب المقدس. فكل الاشياء التي جعلها الاسقف اندروز موضوعاً لصلاته، والكيفية التي بها صلى وثابر على الصلاة قد ظلت الى حين، سراً مخفياً عن عيون العالم . ولاجلها استحق المجازاة لانه اجراها في الخفاء . الا انها كشفت للعالم بعد وفاته يومَ طُبعت ونشرت. وفي الواقع يحس المرء بالخجل يعلو وجهه — والاضطراب يغمر نفسه عند ما يتأمل في حياة التعبد التي قضاها رجال الله الذين كانت لهم صلة وثيقة بالله — امثال ديفد برينارد المرسل بين الهنود الامريكيين ، وديفد لفنستون الذي شفى جراح افريقيا الدامية ، وهدسون تيلور مؤسس اكبر مرسلية في الصين . وهيد المشهور بهيد «المصلي» في الهند الشمالية ، وجورج بون قديس بومباي — وهنري مارتين الذي انفق وأُنفق في بلاد العجم. وفرنسيس زافير ذو المسبحة «روزري» المشهورة ، وجيمس جلمور الذي قضى في ادغال مونغوليا ، والاسقف بومباس الذي قضى في منطقة القطب الشمالي، وماري سلسور التي صارعت مع الله لاجل خلاص نفوس اهل كاليبار

electronic file created by cafis.org

كل هؤلاء يخجلوننا في هذه الحياة ، ويقومون يوم الدين للحكم علينا نحن الذين نهمل الصلاة بحجة عدم وجود وقت كاف للصلاة

ولطالما أكد لنا نفر غير قليل من رجال الصلاة اننا لن نتذوق حلاوة الصلاة وبهجتها الا متى غُمرت كل اوقات حياتنا بالصلاة، ثم قلنا بعد ذلك هل من مزيد ؟ يحدثنا التاريخ عن فرنسيس الاسيسي انه عكف على الصلاة مدة طويلة قبل ان يأتيه الجواب وعندئذ غمره فرح الرب فصار له خير قوة . فلا نندم على الوقت الذي نقضيه في الصلاة — وان طال — قبل ان يأتي الرب بالجواب لان الخسارة في هذا الباب هي خير ربح . ولا يبرحن اذهاننا ان الرب ظهر للتلاميذ عند بحر طبرية بعد ان اعياهم التعب ولعب اليأس بقلوبهم في الهزيع الرابع المعروف « بالفجر الزائف » . فعلينا ان نثابر على الصلاة لئلا ندخل في تجربة . وحينما تهاجمنا التجربة علينا ان نستزيد من الصلاة . في فرصة الصلاة المبكرة نحظى بجلال التأمل بصمت وخشوع في حضرة أبينا . وفي فرصة المساء نستمتع ببهجة الشركة معه ونراجع ما مر بنا من انتصارات. ليست هذه الاختبارات موقوفة على « المتصوفين » ولا على طبقة معينة ممن ينقطعون للعزلة والاختلاء لكنها حق مكتسب وبكورية لكل من يدنو من عرش النعمة . هنا تفوز النفس بسر محضر الله . اذ تجد فيه خير مخبأ . فانتظروا الرب. وأقيموا المذابح المتهدمة. اوثقوا الذبيحة بربط الى قرون المذبح انتظروا النار القدسية التي هي موقد شرر الايمان الحي، وانارة الروح القدس.

ولقد اهتمت الكنيسة اللاتينية والكنيسة اليونانية بابتكار طرق ووسائل لتنشيط الانسان وحثه على المثابرة في الصلاة . فوضعت كتباً خاصة

electronic file created by cafis.org

يستعين بها الانسان في هذا السبيل منها «كتاب الصلاة» و«كتاب التسابيح» و«روزري» وغيرها. ومع ان فادينا علمنا ان لا نكرر الكلام باطلاً في الصلاة كما يفعل الاميون اعتقاداً منهم ان تكرار الكلام يؤثر في الهتهم علها تستجيب صلواتهم، ولكن لا يفوتنا ان نذكر ان الفادي يوصينا مراواً وتكراراً في الانجيل بضرورة المثابرة واللجاجة في الصلاة. ولقد وضع الاسقف اندروز صلاة مطولة نوعاً لكنها تسمو بشعور المصلي عند حلول كل ساعة من ساعات اليوم، وها نحن نورد منها ما يأتي ليكون لهذا الفصل خير مختتم:

يا من جعلت الازمنة والاوقات في قبضة سلطانك
امنحنا نعمة حين نصلي اليك في كل مناسبة
وخلصنا يا من لاجلنا نحن البشر ولاجل خلاصنا
وُلدت في فحمة الليل الداجي الظلام
وامنحنا ان نولد ثانية، وان نتجدد كل يوم بعمل روحك الاقدس فينا
الى ان يتصور المسيح فينا ثانية فنبلغ الى قياس قامة ملئه المجيد
اللهم خلصنا يا من عند شق الفجر، قبل ان تقوم عروس النهار من خدرها
قد قمت انت يا شمس البر من القبر
واقمنا ايضاً معك لنسلك كل يوم في جدة الحياة
موحياً الينا و باعثاً فينا روح التبكيت والندامة
اللهم خلصنا
يا من في الساعة الثالثة ارسلت الروح القدس فحل على الرسل
ولا تنزع هذا الروح القدوس منا

electronic file created by cafis.org

بل جدد عمله وحلوله في قلوبنا كل يوم وكل اليوم

اللهم خلصنا

يا من في الساعة السادسة من اليوم السادس

قد سمرت معك على الصليب كل خطايا العالم

ومحوت صك دين خطايانا بكتابة يدك الجريحة الدامية

ويا من في الساعة السادسة من النهار

انزلت ملاءة عظمى من السماء الى الارض رمزاً لكنيستك

اقبلنا فيها اللهم نحن الامم الخطاة

وارفعنا بها الى حضرتك في السماء

اللهم خلصنا يا من في الساعة السابعة

انتهرت الحمى ففارقت غلام قائد المئة

انتهر بقوتك الراحمة كل حمى معنوية من قلوبنا

وانتزع كل داء أدبي من نفوسنا

اللهم خلصنا

يا من في الساعة التاسعة ذقت مرارة الموت

لاجلنا ولاجل خطايانا

أمت فينا اعضاءنا التي على الارض

ولاشِ منا كل ما تراه منافياً لارادتك

اللهم خلصنا

يا من اردت ان تكون الساعة التاسعة مكرسة للصلاة

electronic file created by cafis.org

اسمعنا ونحن نصلي اليك في ساعة الصلاة هذه
وامنحنا ما نطلبه ونبتغيه
اللهم خلصنا
يا من انعمت على رسلك في الساعة العاشرة
ان يجدوا ابنك فتهللوا من اعماق نفوسهم قائلين
لقد وجدنا مسيا
اكشف عن قلوبنا نحن ايضاً حتى نجده هو بذاته
ومتى وجدناه امتلأت قلوبنا بشراً وحبوراً
اللهم خلصنا
يا من في الساعة الحادية عشرة من النهار
جُدتَ تكرماً فأرسلت الى كرْمك
أولئك الذين كانوا واقفين في الطريق بلا عمل طوال النهار
ووعدت كلاّ منهم بأجر من عندك
امنحنا اللهم نفس هذه النّعمة
ومهما تكن فرصتنا متأخرة حتى الساعة الحادية عشرة
تحنّن علينا راحماً وردنا اليك
اللهم خلّصنا
يا من في ساعة العشاء المقدّسة
رضيت ان تضع رسم سر جسدك ودمك
أعطنا أن نكون نحن أيضاً متذكرين

electronic file created by cafis.org

ومتناولين نفس هذه الفريضة
لكن لا للدينونة بل لمغفرة الخطايا
وأن نتحقق مواعيد العهد الجديد
اللهم خلّصنا
يا من في ساعة العشاء
رضيت أن تنزل عن الصليب
وتُوضَع في القبر
ارفع عنا خطايانا وادفنها في قبرك
مكفراً وساتراً بصلاحك كل شر فعلناه
اللهم خلّصنا
يا من في ساعة متأخرة من الليل
نفخت من روحك في رسلك
ومنحتهم قوة لمغفرة الخطايا أو لامساكها
اعطنا نحن أيضاً أن نختبر هذه القوة
لمغفرة الخطايا لا لامساكها
اللهم خلّصنا
يا من في منتصف الليل أقمت داود نبياً لك
وبولس رسولاً يحمل رسالتك، تمجيداً لاسمك
امنحنا نحن أيضاً أغاني في الليل
لنلهج بك على مضاجعنا

electronic file created by cafis.org

اللهم خلّصنا
يا من أعلنت بفمك الطاهر
ان العريس قادم في منتصف الليل
اجعل اللهم هذا النداء يدوي باستمرار في آذاننا
هوذا العريس قادم
لنكون على الدوام مستعدين للقائه
اللهم خلّصنا
يا من عند صياح الديك
عنّفت بلطفٍ رسولك
ورددته اليك بالتوبة
تفضّل بنعمتك وعنفنا وأنصحنا
فنقتفي آثاره ونسير في خطواته
في التوبة والندامة
عن كل شيء أخطأنا به اليك وأثمنا
اللهم خلّصنا
يا من أرسلتَ نورك
فأبدعتَ الصباح
وأشرقت شمسك على الصالحين والطالحين
أنر ظلمة قلوبنا
بمعرفة حقك

electronic file created by cafis.org

وارفع اللهم نور وجهك علينا
لكي نرى بنورك نوراً
فنرى في النهاية نور مجدك بنور نعمتك
يا من تُقيت كل ذي جسد
وتطعم أفراخ الغربان
الصارخة اليك
و يا من رعيتنا منذ شبابنا حتى الآن
املأ قلوبنا طعاماً و بهجة
حتى تبنى قلوبنا بفيض نعمتك
يا من أنهيت النهار بالمساء
لتجعل مساء الحياة ماثلاً لدى أذهاننا
اعطنا أن نعتبر على الدوام
ان حياتنا تمر كيوم واحد
فنذكر أيام الظلام
وان نذكر ان أيام الظلمة كثيرة
وان الليل لا محالة قادم
حين لا يستطيع أحد أن يعمل
امنحنا أن نتقي الظلام بأعمال الخير والصلاح
لئلا نُطرَح أخيراً في الظلام الدامس
وهب لنا ان نصرخ اليك على الدوام

electronic file created by cafis.org

قائلين امكث معنا يا ربنا
لان نهار الحياة قد مال وأقبل علينا المساء
ان عمل الخالق كله عدل وحقّ
وعمل الفادي كله عطف واشفاق
وعمل الروح القدس كله تعزية ورفق
هذا هو المعزي الآخر
الذي مسحنا
وختمنا
وأعطانا العربون المقدس

electronic file created by cafis.org

الفصل الخامس

اقتدار الصلاة

لا جدال في أن للصلاة قوة . فاكثر الناس روحانية وأرسخهم ايماناً ، والآباء الأولون ، والأنبياء ، والرسل قد وجدوا في الصلاة قدرة . وفادينا نفسه لم يستغن عن الصلاة . فالاتصال بالله و بالعالم الغير المنظور ليس فقط أمراً واقعياً محققاً لدى الذين يصلّون بل هو أيضاً مصحوب على الدوام بقوة فعّالة يتوشح بها من يُصَلون «لان منتظري الرب يجدّدون قوة»

فطبيعة الصلاة تؤيد الاعتقاد بأن للصلاة قوة مقتدرة فعّالة . فعند ما يحدث تماسّ بين قطب سلبي وقطب ايجابي في بطارية كهربائية ينتج عن هذا التماسّ شرر ناريّ . وكذلك — والقياس مع الفارق — عند ما يحدث تماسّ في الصلاة بين عجز الانسان و يأسه و بين قدرة الله و بأسه ، فمن هذا التماسّ تنتج نتائج ذات بال . فالصلاة هي التسامي بالذهن والقلب والارادة الى حضرة الله . والله من جانبه يستجيب صرخة الانسان المخلوقة نفسه على صورة الله تعالى

عند ما يمسك الانسان بالله في الصلاة ، يُمسِك الله بالانسان . «غمرٌ ينادي غمراً» . فغمر بؤسنا ينادي غمر مراحم الله . عند ما يلتقي البحر الهائج ، بالجوّ العابس المكهرّ ، تكثر الميازيب . «كل تياراتك ولججك طمت عليّ» ، «هذا المسكين صرخ والرب استمع»

electronic file created by cafis.org

اننا نستدل على اقتدار الصلاة من طبيعتها ، ومن اختبارنا ، ومن الشهادة المتواترة لكلمة الله سواء أكانت مصوغة في قالب وصيَّة أو وعد أو مثال

فكل ما يدَّعي به بعض المعترضين على اقتدار الصلاة باسم الفلسفة أو العلم انما هو مبني على فرضٍ باطل ينكر كل شيء فائق للطبيعة . فنفس هذا السهم الباطل القاتل يصوّبونه نحو الاعتقاد بميلاد المسيح من عذراء ، وعقيدة الثالوث ، والايمان بقيامة الرب يسوع وصعوده بالجسد

ولكن علينا أن نذكر ان «في السماء والارض أشياء كثيرة تفوق حَدَّ أحلام» الفلسفة البشرية

«اذا كانت أنامل الراديو النّحيلة توقّع أنغاماً شجيَّة

وترسلها على أجنحة الأثير فتفري طياتَ الظلام عبر البحار وعرضَ القفار

واذا كانت أوتار القيثارة

ترسل هزات نغماتها فوق الجبال والآكام والكهوف

واذا كانت الأغاني المنطلقة في الفضاء كأريج الورود الداميـة يخترق طيات الهواء

فكيف نعجب نحن البشر اذا قيل لنا ان الله يسمع الصلاة و يستجيب الدعاء»

ان الاعتراضين الرئيسيَّين اللذين يدعيهما أدعياء العلم على اقتدار الصلاة ، هما : ان الصلاة تتعارض مع النواميس الطبيعية المرتبة ، وان الصلاة لاله كلّي القدرة وكلّي المراحم ، انما هي عملٌ سليط وَقِح . لماذا ننتظر من الله ان يعطِّل «حركة مرور» نواميسه الطبيعيّة العظمى ، لكي تمرّ عربة

صلواتنا الهزيلة ؟ ولماذا نهتم بأن نسأل ونحن نعلم «ان أبانا السماوي يعلم ما نحتاج اليه قبل أن نسأله»

لكن هذين الاعتراضين يتبخّران امام حرارة ايماننا بشهادة كلمة الله ، وثقتنا بشهادة اختبار شعبه منذ خلق العالم . وما علينا الا ان نذكر ونذكّر ان مثيري هذين الاعتراضين لا يفقهون شيئاً عن معنى الصلاة العملية في جانبها الاختباري . فمَن مِنَ الناس يستمع لمحاضرة عن الكيميا يلقيها انسان لم يدخل معملاً كيمياوياً طول حياته؟ ومَن منّا يحترم رأياً في الموسيقى ابتدعهُ أصمُّ أبكم ؟ ولكننا نصدق المسيح عند ما يحدثنا عن الصلاة لأنه انما يتكلم بسلطان. ان أحداً ما لم يصلِّ قط مثلما صلّى هو . كذلك لم يجرؤ أحد ان يعلّم الآخرين عن قوة الصلاة بمثل الوضوح واليقين اللّذين علم بهما المسيح. وليس لنا من ردّ على ما يسمونه بالاعتراض العلمي أقوى من الردّ الآتي الذي وضعته السيدة دورا جرينو بل الخبيرة بقوة الصلاة وشدّة اقتدارها. قالت:

« . . . هل بامكان الطلبات التي تلفظها الشفاه المؤمنة ان تغيّر مجرى الحوادث فتعجله أو تعطّله ؟ أيمكن الصلاة ان تخلق من العدم أشياء غير موجودة ؟ أو بعبارة أدقّ أيمكن ان تقع حوادث لم يكن لحدوثها من عامل سوى الصلاة ؟ نعم . وألف نعم . ولو قصر ايماننا دون ذلك لقضينا ببطلان قوة الآيات الكتابية التي تشهد لقوة الصلاة ، وحسبنا ان الله قد وضع في أيدي خلائقه آلة ميكانيكية ضخمة لا لينتفعوا بها فعلاً بل لتكون بين أيديهم ألعوبة علمية للتسلية وكفى ، مثلما توضع اللُّعَب بين أيدي الاطفال لتمرّن ملكاتهم الفكرية ، فلا تبقى للصلاة من قيمة سوى انها تدرب ملكات

electronic file created by cafis.org

النفس على الاتصال بالله . لو رخصت قيمة الصلاة الى هذا الحدّ ، اذاً لحقّ لغير المؤمن ان يستخف بالصلاة وجاز للمؤمن ان يهمل هذا الواجب المقدس بل ان يقصّر فيه ، وأن تضعف ثقته به . أما الاعتراض المعتاد التي يتردّد مراراً وتكراراً على ألسنة الكثيرين بقولهم ان الصلاة تتعارض مع النواميس الطبيعية التي رتبها الله في الكون،فمن السهل ان نردّ عليه بقولنا «ان الصلاة نفسها هي احد هذه النواميس التي وضعها ورتب عليها بعض النتائج التي تتبعها»

يتضمن الكتاب المقدس شهادات قوية متواترة لاقتدار الصلاة . فكل وصية متضمنة فيه عن الصلاة ، وكل أمر لنا بأن نرفع طلباتنا لدى الله — كل هذا يُحسب لغواً اذا لم تكن الصلاة مقتدرة فعّالة : «اسألوا تعطوا . اطلبوا تجدوا . اقرعوا يُفتح لكم» . فكيف استطاع المسيح أن يقول هذا ما لم تكن هنالك أذن مستمعة،وشخصية الهية مستجيبة،ويدٌ قوية تُمسك بالمزلاج لتفتح الباب ؟ قديماً تحدّث الرب لموسى من جهة عبدٍ ذليل قال : «يكون اذا صرخ اليَّ أني أسمع . لاني رؤوف» (خروج ٢٢:٢٧) . وأُعطي سليمان هذا الوعد العظيم : «اذا تواضع شعبي الذي دُعي اسمي عليهم وصلوا وطلبوا وجهي ورجعوا عن طرقهم الرديئة فاني أسمع من السماء وأغفر خطيتهم وأبرىء أرضهم» (٢ أيام ٧:١٤) . وفي سفر المزامير نجد مواعيد تفوق الحصر تؤكد لنا ان الله يسمع الصلاة و يستجيب الدعاء (مزمور ٩:١٢ و١٠:١٧ و٣٤:١٥ و٣٧:٤ و٥٦:٩ و٦٢:٢—٥ و٦٩:٣٣ و٨١:١٠ و٨٦:٥ و٩١:١٥ و١٠٢: ١٧ و١٤٥:١٨) . «التفتَ الى صلوة المضطرّ ولم يرذل دعاءهم ..... لانه أشرف من علوّ قدسه.الرب من السماء الى الارض نظر . ليسمع أنين الاسير

electronic file created by cafis.org

ليطلق بني الموت» . ومن يتصفّح كتابات اشعياء وارميا وحزقيال ويوئيل وعاموس وصفنيا وذكريا يجدها كلها عامرة بالمواعيد العظمى والثمينة المقدمة لكلّ من يصلي

وفوق ذلك ، فان الباب الذي لم يكن في العهد القديم مفتوحاً الا جزئياً قد أضحى في العهد الجديد مفتوحاً على مصراعيه . وهو يقدم لنا بسعة الدخول الى موارد لا تُحصى من المواعيد العظمى الجليلة التي جعلها الله في متناول كل من يصلي : «لان كل من يسأل يأخذ» . . . «اذا اتفق اثنان منكم على الارض في أي شيء يطلبانه فانه يكون لهما من قِبَل أبي الذي في السموات» . . . . «كل ما تطلبونه في الصلاة مؤمنين تنالونه» . «مهما طلبتم من الآب باسمي ، يعطيكم»

لذلك تقدّم الرُّسل «بثقة الى عرش النعمة فنالوا رحمة ووجدوا نعمة عوناً في أوقات احتياجاتهم» . فقد طلبوا من الله الذي يعطي الجميع بسخاء ولا يعيّر . نعم صلوا لأجل أنفسهم ، وتوسلوا لأجل بعضهم البعض وتضرعوا لأجل كنيسة الله بلا ملل ولا كلل ، لانهم كانوا يعلمون علم اليقين ان «طلبة البار تقتدر كثيراً في فعلها» . ويحدثنا يوحنا الرسول في وحشته التي اختتمت بها حياته قائلاً : «ومهما سألنا ننال منه لأننا نحفظ وصاياه .... ان طلبنا شيئاً حسب مشيئته يسمع لنا . وان كنا نعلم انه مهما طلبنا يسمع لنا نعلم ان لنا الطلبات التي طلبناها منه»

ولنا في الصلوات المستجابة المدوّنة في الكتاب أدلة أكثر اقناعاً من المواعيد التي مرّ بنا ذكرها . فابرهيم ، ويعقوب ، وموسى ، وجدعون ،

electronic file created by cafis.org

وداود، وايليا، واليشع، وآسا، ويهوشافاط، وحزقيّـا، واشعيا، ومنسّى، ودانيال، وأرميا، كلهم يشهدون بحياتهم وصلواتهم المستجابة لاقتدار الصلاة ظاهراً وباطناً، ونظرياً وفعلياً. والعهد الجديد يفيض بأدلة أوفر مؤيدة لحقيقة اقتدار الصـلاة. فلما صرخ الرسل سمعهم الرب واستجابهم قوةً في أنفسهم. «فلما صلوا — يوم الخمسين — تزعزع المكان الذي كانوا مجتمعين فيه «وامتلأ الجميع من الروح القدس وكانوا يتكلمون بكلام الله بمجاهرة»

وكان الرسـل على الدوام يستهلّـون أعمالهم العادية بالصـلاة لله. وقد أثمرت صـلواتهم المتحدة فأوجدت تغييراً اعجازياً في أنفسهم وفي العالم المحيط بهم بواسطة معمودية الروح القدس

هذه هي القوة المزدوجة الملازمة للصـلاة. فهي ذات قوة فعالة في نفس المصلي وذات قوة مؤثرة في من يصلي لأجلهم

فالصـلاة، قبل كل شيء، هي نسيم صافٍ عليـل يشفي علل النفس ويداوي سقامها. واذ نفتح نوافذنا تجاه اورشليم نتنسَّم نسيم السماء الشافي. حسناً قال أحدهم: «الصـلاة هي نسيم حياة المؤمن وهي الجوّ الطبيعي الذي فيه يعيش ويتنفس». والصلاة هي «ترويض تهذيبي للنفس يُساعد على قمعها وكبح جماحها». فالمجهود الذي يبذله المرء ليُشعر نفسه بحضرة الله، يروّض أعصاب النفس ويقوّي عضـلاتها. فالصـلاة هي في ذاتهـا نموٌّ في النعمة. والانتظار في محضر مليكنا الأعلى يطبع النفس على الولاء والوفاء لسـيدها الأعلى. فما من تربة تنمو فيها ثمار الروح وتكثر مثـل التربة المحيطة بعرش

electronic file created by cafis.org

النعمة . هناك ينمو هـذا العنقود و ينضج ، حتى الكمال : «المحبـة . الفرح . السلام . طول الاناة . اللطف . الصلاح . الايمان . الوداعة . التعفف»

والصـلاة تنشط العقل ، وتصهر العواطف ، وتقوي الارادة وتنعشها .

فالصلاة المستمرة المثابرة — كما يقول جيمس هيستنجز — توطّـد عزيمة المتراخي ، وتنهض همة الخامل ، وتدخل الهدوء والسـلام على النفس القلقة المضطربة ، وتبث روح الغيرية في قلب الانسـان الاناني . فالصـلاة تغيّرنا وتبعث فينا شعوراً حساساً ، واحساساً دقيقاً من جهة الخطية . فمتى كنا قريبين من الله في المسيح فانه يسكب علينا من روحه فيرذل كبرياءنا ، ويكبح جماح ارادتنا الجامحة العنيدة لان الصلاة في جوهرها هي التسليم لله . «لتكن لا ارادتي بل ارادتك» . ولقد أجاد أحدهم اذ عـبّر عن هذه الفكرة باستعارة طريفة فقال : «ان قوة الجذب في صـلاتنا قد لا تزحزح العرش الابديّ ، لكنها تدني قارب حيـاتنا من صخر الدهور فتدخلنا الى مرفأ الامن والنجاة باخضاع ارادتنا لارادة الله»

وهنالك نتيجة أخرى للصلاة — هي السلام الداخلي . فكل الذين يرفعون احتياجاتهم الى الله بالصلاة والدعاء ، لا بد أن يختبروا سلام الله الذي يفوق كل عقل . وهذا السلام الداخلي يشع بأنواره من أعماق النفس فيسطع على الآخرين المحيطين بها . فمع ان وجه موسى كان يلمع وهو لا يعلم ، الا ان بني اسرائيل كانوا يعلمون — ولقد أجاد جيمس لين في وصف جمال وجه أحد المؤمنين اذ قال :

« الصلاة قادرة في الوقت المناسب على ان تقيم من الوجه الانساني

electronic file created by cafis.org

مذبحاً مقدساً لذاته . فالافكار النقية المختزنة في الفكر على توالي السنين كالانغام الموسيقية الكامنة، سوف تجد لنفسها مخرجاً في التعبير فتنسجم معه رسوم الوجه وتصبح مؤتلفة مع ايقاع نغم الذهن والفؤاد »

هذا تفسير عصري لذلك القول الحكيم الذي سجله بولس الرسول منذ تسعة عشر قرناً اذ قال : « ونحن جميعاً ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف كما في مرآة نتغير الى تلك الصورة عينها من مجد الى مجد كما من الرب الروح »

ولو كانت فاعلية الصلاة قاصرة على النتائج الداخلية الباطنية ، لتاقت انفسنا للصلاة حباً بالشركة مع الله . لان الشركة معه يجب ان تفوق كل عطية او هبة نطلبها منه. ومع ذلك فالصلاة اكثر من هذا

وكلما امعنّا النظر في دراسة البشائر والرسائل تبين لنا ان المسيح وتلاميذه اعتبروا الصلاة وسيلة لغاية . وما اجابة الصلاة سوى برهان قبولها وحجة رضى الله عنها وعن المصلي . فالعهد الجديد واختبار المسيحيين يشهدان ان للصلاة قوة مؤثرة في ما هو خارج عن دائرة المصلي نفسه . لاننا لسنا عائشين في عالم منعزل ولا في كون مختوم، بل في امكاننا ان نكون على صلة وثيقة بأبينا السماوي الذي يعرف كل ما يحيط بنا ، ويهتم بكل ما يهمنا وهو فوق ذلك يحبنا

تكلم الدكتور دوجلاس ماكنزي عن الصلاة كأداة فعالة في يد الله ، فقال : « لا يمكننا ان نتصور حلاً معقولاً للاتفاق العظيم المؤيد بالادلة القوية الكثيرة المنقطعة النظير الدالة على ان البشر يستطيعون ان يحيوا ويتحركوا ويوجدوا ولهم بالله صلة وثيقة — لسنا نجد حجة لكل هذا الاتفاق

electronic file created by cafis.org

سوى حجة الصلاة . هـذه حجة لا تضارع في قوتها وفي عموميتها » ان سر الصلاة التشفعية لهو سر عظيم . لـكن تاريخ الصلاة التشفعية يحسب اقوى حجة على اقتدار فعلها . فهو تاريخ حافل يمتد من صلاة ابرهيم لاجل سدوم الى صلاة كل المؤمنين في الـكنيسة الجامعة في وقتنا الحاضر

فكل الارض التي نحن عليها مقيمون تربطها سلاسل من ذهب بقاعدة العرش الاعلى

وللصلاة قوة في دائرة الطبيعة . « صلى ايليا ان لا تمطر . فلم تمطر على الارض ثلاث سنين وستة اشهر. ثم صلى ثانية ان تمطر فاعطت السماء مطرها وجادت الارض بثمرها » (يعقوب ٥: ١٧و١٨) وقد جاء في ترجمة حياة اللورد لورنس انه عند ما اعترض احدهم على اقتدار الصلاة على منع المطر او انزاله بحجة ان الصلاة تعجز عن احداث تغيير في نظام الطبيعة اجابه ذلك السياسي الهندي المسيحي العظيم قائلاً : « يكفيني أنا ان الله اوصانا بان نصلي ووعدنا انه يستجيب صلاتنا »

وللصلاة قوة في دائرة النعمة . فعند ما يوصينا الله بان نصلي بعضنا لاجل بعض ، لا يطلب منا ذلك عبثاً لـكنه يهبنا هذا الحق كامتياز عظيم وقوة فعالة دافعة لنا . فالمسيح صلى لاجل بطرس . و بولس صلى لاجل ابنائه في الايمان وشركائه في الخدمة ذاكراً كلاً منهم باسمه الخاص . وكل انتعاش ديني كان وليد الصلاة . وما على المرء الا ان يقرأ ترجمة حياة جون وسلي وتشارلس اسبرجون ودويت مودي وسائر المبشرين العظام حتى يتحقق ان السر في ربحهم النفوس للمسيح يُعزى الى شركتهم الفعالة مع الله

electronic file created by cafis.org

للصلاة قدرة على الاتيان باعمال ممتازة في دائرة العناية . ولقد كانت حياة جورج مولر مثالاً فذاً لاقتدار الصلاة على تداخل الله الخاص في دائرة العناية ليدبر حاجات ابنائه الذين رفعهم اليه جورج مولر في الصلاة . فإما ان تكون قصة جورج مولر من وضع خيال البشر الزائف او انها حجة دامغة على اقتدار الصلاة . فقد استطاع ذلك القديس العظيم ان يجعل الله شريكاً معه في ادارة تلك الملاجيء العامرة فدبر الله كل حاجاته وحاجات الذين عُني بأمرهم في مدينة برستول بطريقة اعجازية فائقة لا يتطرق اليها الشك من احدى نواحيها

وكذلك قصة حياة هدسون تيلر وارسالية الصين الوسطى . فهما خير دليل متواتر على استجابة الله للصلاة . فقد ظلت تلك المرسلية مدة سبعين عاماً وسيل التبرعات التطوعية ينحدر عليها بغير انقطاع حتى بلغ ٧٠١و١٠٣و٥ جنيهاً . « فكوار الدقيق لم يفرغ وكوز الزيت لم ينقص » . وفي يومنا الحاضر تضم هذه المرسلية جماً غفيراً من العمال يزيد عن الف مبشر يخدمون في اربعة آلاف معبد

ولقد حدثتنا جين ستودارت عن مكان الصلاة السرية في حياة الكنيسة المسيحية على ممر الاجيال . فاخبرتنا عن الكنيسة الشهيدة في ايام الامبراطورية الرومانية الوثنية القديمة وكيف ان الصلوات كانت ترفع الى الله من المستشهدين وقت استشهادهم في سرادب الاحياء او مجازر الموتى فكانوا يتلقون عنها سريع الجواب . وعرفتنا عن الآباء الاولين ، اغناطيوس و بوليكاربوس ، واكلمندوس . وعن صلاة مونيخا الصابرة الظافرة لاجل

electronic file created by cafis.org

ابنها اغسطينوس . وعن سان برنار كليرفو ، وسان تريز فكلاهما كان جباراً مقتدراً في الصلاة . وعن سان لويز وسان فرنسيس ودانتي في العصور المظلمة . وعن صلاة سان باترك في منفاه واسفاره ومخاطره وكيف ان الصلاة انقذته من كل خطر وحفظته من كل ضر . وعن صلوات المصلحين لوثر وزونجلي وكالفن ، وجون نوكس — وكلهم جبابرة بأس في الصلاة فمتى اطلع الانسان على صفحات هذه التواريخ المجيدة اضطرمت نار الايمان في قلبه واشتعلت انوار اليقين والرجاء في نفسه وذكر كلمات لوثر :

«ليس في استطاعة احد ان يثق بقوة الصلاة و يتيقن من شدة اقتدارها الا اذا مارسها عملياً في حياته . انه لامر جلل ان تشعر النفس بحاجتها الملحة ثم تحاول ان تعالجها في الصلاة . هذا الامر أعرفه أنا جيد المعرفة في حياتي فكثيراً ما صليت وجاءني الجواب بوفرة فاقت حدود سؤلي وانتظاري . ومع ان الرب قد أجل الاجابة الى حين الا انه في وقته قد اسرع بالجواب

« ما من تنهدة او عاطفة او حنو
أو استغاثة او استعطاف او استرحام
الا وقد بلغت عرش السماء
ووجدت لها صدى بين موسيقى الملائكة

لا بد لكل صلاة من اجابة ما بطريقة ما، وعلى صورة ما. فكل دموعنا محفوظة في زق عند الله .هذا صبر الصلاة التي يقال عنها انها غير مستجابة بل هذا هو اقتدارها وظفرها

electronic file created by cafis.org

الفصل السادس

عوائق في سبيل الصلاة

أيّ قديس لم تمرّ به أوقات في ساعة اختلائه بالله ، لم يجاهد فيها ضد الفتور والجمود ، و يصارع ضد أفكاره الجامحة وارادته العنيدة ؟ ! ومَن من المؤمنين لم تخامره تصوُّرات وشكوك في العالم الروحي الغير المنظور ومع ذلك رفع الى السماء يدي التوسُّل والصلاة مرتقياً بروحه الى محضر الله ؟ !

« كم رأيت «الجبار» وأنا في بلاد العرب
ولكن بعين حائرة حتى غاب وراء الأفق
وأنا أستمع لزئير الاسد
وأُصغي لهمس الوادي الجبار
كم رفعت يديّ الى السماء طالباً طلبة
وظللت رافعاً اياها طوال الليل
وقلبي يفيض بالأماني
لكني لم أنل من الصلاة الا الصلاة نفسها»

ان العوائق التي تقف حائلاً في سبيل الصلاة كثيرة ومتنوعة . فعدوّ نفوسنا الاعظم يعلم ان الصلاة هي الميدان الذي فيه تكلل هامة المؤمن باكليل الظفر والنصر . فهو يبذل كل الجهد لاقامة كل عائق أمامه في هذا السبيل . حسناً قال أحد القديسين « ان الشيطان يرتعب كلما رأى أضعف المؤمنين

electronic file created by cafis.org

جاثياً على ركبتيه» ، لكنه قول لا ينطبق على كل الظروف والاحوال . وفي اعتقادنا ان يوحنا بنيان كان أبعد منه بصراً وأحدّ منه بصيرة حين صوّر المسيحي السائح في وادي الاتضـاع ، وقلعة الشكوك ، محاطاً باعداء يعيقون صلاته و يوسوسون في أذنيه كلما همَّ بالمسير في وادي الظلمات

و يمكننا ان نقسم عوائق الصلاة الى قسمين — عوائق خارجية ، وعوائق داخلية . الاولى منبثة في الظروف الخارجية المحيطة بالانسان . والثانية رابضة في مخادع نفس الانسان

من المسلَّم به انه يوجد كثيرون من الناس لا يرعون حُرمةً لزمان ولا يحتفظون بقدسيَّةٍ لمكان . فسواءٌ أكانوا جالسين في وادي الظلمات أم محمولين في عاصفة الحياة ، يخصصون وقتاً للتأمل والصلاة . من الهيّن عليهم ان يرفعوا نظرهم الى الله «سواء أكانوا مظللين بقبة الفضاء أم بقباب كاتدرائية كبرى تخلّل جدرانها الصور الفنية البديعة وتتخلّل أجواءها الموسيقى الملائكية وتنفذ من نوافذها أشعة الشمس النورانية»

لكن من يقرأ عبارات لويس اثرماير التي وصف بها مرارة نفس كاليبان وهو يقاسي الامرين في منجم من الفحم، تراكمت فيه أوحال الامطار وعبثت به الظلمات، يستطيع أن يدرك مقدار العوائق التي ترمينا بها الظروف المحيطة بنا — الظروف المريرة التي يكون من الصعب على الانسـان المغمور بها ان يصلي . ولقـد أحس أيوب بمرارة هـذه الظروف عند ما فقد كل ما له وآله وخسر صداقة معارفه وخلاَّنه وأضحى جسمه فريسة الامراض والآلام ، فقال شاكياً باكياً :

«ها اني أصرخ ظلماً فلا استجاب . أدعو وليس حكم . قد حوَّط طريقي فلا أعبر وعلى سُبلي جعل ظلاماً . أزال عني كرامتي ونزع تاج رأسي . . . . قد أبعد عني اخوتي ومعارفي زاغوا عني . أقاربي قد خذلوني والذين عرفوني نسوني» (أيوب ١٩: ٧—١٤)

لكنه قبيل ختام هذا الاصحاح عينه يقول واثقاً : —

«أما أنا فقد علمت أن وليّ حيّ والآخر على الارض يقوم .... الذي أراه أنا لنفسي وعيناي تنظران وليس آخر»

(أيوب ١٩: ٢٥ و٢٧)

وارميا حين كان مثقلاً بآلام صهيون المسبيَّة وجَد الصلاة أمراً عسيراً فقال نائحاً : «صار السيد كعدو . ابتلع اسرائيل . ابتلع كل قصوره . أهلك حصونه وأكثر في بنت يهوذا النوح والحزن . . . . كره السيد مذبحه . رذل مقدسه . حصر في يد العدو أسوار قصورها». الى أن قال : «لنرفع قلوبنا وأيدينا الى الله في السموات . نحن أذنبنا وعصينا . أنت لم تغفر . التحفتَ بالغضب وطردتنا . قتلتَ ولم تشفق . التحفتَ بالسحاب حتى لا تنفذ الصلاة» (مراثي ٢: ٥ و٧ و٣: ٤٢—٤٤) . لكن ارميا وجد في النهاية منفذاً للثقة بالله والاعتماد على أمانته التي لا يعتريها تغيير ولا ظل دوران . وكذلك يمكننا نحن ان ننتصر بالصلاة على الرياح المعاكسة لنا . لان في أحلك ساعات الظلام يشرق الرب علينا بنوره و يضيء بوجهه الوضاح . فهو نورنا وهو خلاصنا

وهنالك عائق خارجي آخر هو وليد العوامل التي تقطع علينا سكوننا وسلامنا . فعند ما ننصرف الى ساعة اختلائنا بالله تهجم علينا ضوضاء الشارع

electronic file created by cafis.org

وضجيج المارة فيقطع علينا فرصة الهدوء التي ننوي ان نقضيها في محضر الله . وعند ما نلج باب خلوتنا — مهما يكن نوعها — نسمع دقات التليفون المتواصلة والملحّة . ويُزعجنا ضجيج راديو الجيران ، وحركات الاطفال ، ودقات جرس الباب الخارجي ، كأن كل هذه العوامل متألبة على ميعاد اختلائنا بالله . فكيف نطيق عليها صبراً . بل كيف نتخذ منها خير معوان لنا على الصلاة ، فنحول أحجار عثرتها الى أحجار نبني بها سُلَّم شركتنا مع الله؟

لنا في المسيح خير مثال في هذا السبيل . وكل من درس الانجيل تبين له ان المسيح خلق من كل عامل مزعج ومعطل خير فرصة لاظهار قوته الشافية وكلماته المعزية . فاذا كان السيد قد سلك هذا السبيل ، أفلا يجدر بالعبد أن يحذو حذو سيده ، ويقتفي أثره؟

على ان كل العوائق والمعطلات الخارجية التي تقف حائلاً في سبيل الصلاة ، هي أقلّ خطراً وأضعف أثراً من العوائق الداخلية التي تقوم في اعماق قلب الانسان ، فتجعل الصلاة ضرباً من المحال . فعدم الايمان ، والافكار الشاردة ، وانشغال البال ، والكبرياء ، والانانية ، والانشغال بالرسميات عن الروحيات ، والانصراف بالعرض عن الغرض ، والخمول ، والخطية الرابضة في الفؤاد ، والروح الحاقدة — كل هذه عقبات كبرى وعوائق عظمى تقف حائلاً في سبيل صلواتنا السرية وصلاتنا العائلية

«يجب ان الذي يأتي الى الله يؤمن بأنه موجود وانه يجازي الذين يطلبونه» . فلن يقوى أحد على ان يصلي بحرارة في جوّ مفعم بالشكوك . ماذا يتبقى من رصيد ايماننا اذا حذفنا منه ايماننا بالاله الحيّ الضابط الكون ، وثقتنا

electronic file created by cafis.org

بيسوع المسيح ابنه الوحيد الذي صلب لأجل خطايانا ، وأُقيم من الاموات وصعد الى السماء وهو الآن يحيا لاجلنا . و بقوة الروح القدس ، وسلطان كلمة الله الموحى بها ؟ ان الشك في أحد هذه الاركان أو في بعضها يقتل عصب الصلاة . لأن هذه الاركان هي التراث المقدس الذي يشترك فيه جميع المؤمنين سواء بسواء . وعلى هذه الاركان يقوم هيكل الصلاة المسيحية الحقة. فاذا بذرنا في هذا التراث المجيد و بعثرنا فيه ذات اليمين وذات اليسار ، أو اذا استبدلناه بالفلسفة الكاذبة أو استعضنا عنه بالذهب الذاهب ، فلا شك ان صلاتنا تموت في مهدها

إن عدم الايمان هو عدو الصلاة اللَّدود. فمسيحية بلا مسيح، أو مسيحية مبتورة ممسوخة قائمة على مبادىء أدبية جذابة وقوانين سفسطية خلابة ، لا يمكن أن تجد تربة تنمو فيها بذرة الصلاة وتترعرع وتثمر . ولكن الصلاة في مقدورها أن تتغلب على الشكوك اذا ثابرنا عليها . حسناً قال سر توماس براون في احد كتبه : «لقد صارعت الشكوك وصرعتُها لا بوقفتي العسكرية بل بركبتي المنحنية»

وانشغال البال أو تشتت الفكر هو عائق آخر للصلاة . متى كنا على هذه الحال أمسينا عاجزين عن تركيز عقولنا في التفكر بالعالم الابدي ، فتحكّم المادة فينا و يضيّق الافق امام نظرنا ، فلا نقوى على تثبيت نظرنا في الاعالي. نحاول ان نتحدث مع الله ، واذا بنا نتخاطب مع العالم المادي المنظور . فمَن منا لم يشعر وهو على هذه الحال بشدة هذه العوامل التي تقطع عليه فرصة

electronic file created by cafis.org

الاختـ ـء بالله . بل مَن منا لم يشاطر الزابوري قوله : «كلَّت عينايَ من التطلّع الى فوق» . سيما عند ما يكون الروح نشيطاً والجسد ضعيفاً؟ !

ان لحظة يقضيها الانسان امام الله في الانتباه وجمع قواه، يفضلّها الله على ساعات نقضيها في حضرته والافكار مشتتة وقوى النفس مبعثرة . بامكاننا ان نتغلب على الفتور والجمود في الصلاة وان ننتصر على الجانب الصوري والطقسي منها متى ذكرنا المسيح وتعلّمنا من رسله . فمتى كنا محبين لله أصبحنا منتبهين وواعين . فالقلب الخاضع لله لا يمكن ان يكون غافلاً أو فاتر الهمة . عند ما نتفكر في الله تضطرم نار التعبُّد في قلوبنا ، و يحلو لنا الحديث معه بقلوب مفعمة حباً وقداسة . فيكون الفم خير مترجم عما في الفؤاد

وهنا لك عائق آخر للصلاة هو الكبرياء والانانية . قديماً صلى الفريسي وهو متحصن بكبريائه وأنانيته فكانت صلاته مكرهة لدى الله . ان الشرط الجوهري الاساسي للشركة الخالصة الصادقة مع فادينا وخالقنا هو وداعة القلب وتواضعه . فالقلب المنكسر والروح المنسحق لهما قيمة كريمة وثمينة في نظر الله. وتقديم حاجات الآخرين على حاجاتنا لهو خير مران روحي عملي في مدرسة الصلاة . فكم من أناس شعروا باقترابهم من الله بمجرد انشغالهم بمصالح الآخرين

منذ بضع سنوات كتب احد الفنانين الايطاليين كتاباً عن سيرة يسوع. وقد كان قبل كتابتها ملحداً. فاستقبله جمهور القراء استقبالاً حماسياً رائعاً. ولما سئل مؤلفه جيوفاني بابيني عن سبب تحول فكره عن العالميات الى شخص المسيح المجيد قال لقد تمَّ له ذلك وهو مشتغل بتدبير حاجات اولاده. فمهما يكن اهتمامنا

electronic file created by cafis.org

بصوالحنا عظيماً الا ان اهتمامنا بمصالح اولادنا اعظم . لاننا نبغي لهم افضل ما نبغيه لانفسنا ، بل أوفر . فالمحبة الصادقة تسلحنا بنية حماية صغارنا من كل شر وضر . مراراً يكون الاب بعيداً عن المسيح لكنه يشعر بشيء من الغبطة عند ما يرى اولاده يقبلون الى شخص المسيح . فلو فكر في أمرهم جدياً لاضطر ان يصلي لاجلهم ومتى اراد ان يصلي لاجلهم استُدرج في النهاية الى ان يصلي معهم . وقد يتفق ان تكرارنا الصلوات التي تعلمناها منذ نعومة اظفارنا يوقظ فينا تذكارات مجيدة تذيب قلوبنا الجامدة وتهذبها ، وتقربنا من قلب الله

اذا ركزنا صلاتنا ضمن دائرة حاجاتنا الذاتية اضحت صلاتنا محصورة في دائرة ضيقة ، ومطبوعة بطابع الانانية والجمود والجحود . ولكننا نستطيع ان نركض في سبيل وصايا الله متى رحب الرب قلوبنا . ان وطن المسيحي الحقيقي هو السماء . فهو اذاً سفير العلي على هذه الارض . فمن واجبه بل من حقه ان يرفع هذا العالم الى الله على اجنحة الصلاة

فليذكر كل مؤمن وهو قادم على الصلاة

انه انما يدنو من حضرة المليك الاعظم

فليطلب منه طلبات عظمى تليق بمقامه الكريم

ومهما بالغنا في طلباتنا

لن يمكننا ان نتخطى الحد الذي رسمه لنا الله في طلباتنا

متى امعنا النظر في الصلاة الربانية وتأملنا الصلوات التي رفعها فادينا الى الآب في ايام جسده على الارض ، أمكننا ان نرى فيها عمقاً واتساعاً

electronic file created by cafis.org

لا حدَّ لها : « لست أسأل من أجل هؤلاء فقط بل أيضاً من أجل الذين يؤمنون بي بكلامهم » . فمَن من البشر يستطيع ان يحصر في فكره كل الذين تضمهم هذه الصلاة في عرضها واتساعها ؟ !

حسناً قال الدكتور هيستنجز :

« الانانية في الصلاة هي في الغالب نقطة ضعف عند المسيحيين المتقدمين في الاختبارات الروحية — اولئك الذين اضحت الصلاة عندهم أمراً مألوفاً . وهذا الخطر وان كان يحيق بنوع خاص بأصحاب الامزجة الحادة ، الا انه يحدق بالاكثرين ، من كل طبع ومزاج . لذلك وجب علينا ان نكون على اتصال روحيّ وثيق بالله حتى يمكننا ان نطلب الأشياء التي لها صلة بمجد الله وكرامة اسمه تعالى . ويجب ان نكون على علم دقيق بحوادث العناية حتى يمكننا ان نجد موضوعات وفيرة للشكر . كلما مر بنا يوم من الايام ، وجب ان نكون على رفقة ودية برفاقنا من البشر كي نجد من حاجاتهم موضوعاً لطلباتنا . »

كلما ضاق نطاق معرفتنا بحاجات البشر وآلامهم ضاق نطاق تضرعاتنا وكلما اتسعت معرفتنا بما يحيط باخوتنا اتسعت دائرة تشفعاتنا . فبطرس الرسول صعد الى السطح ليصلي ودائرة فكره محصورة في اليهود واليهودية . لكنه بعد تلك الرؤيا المثلثة المجيدة التي أعلنت له ، رحب دائرة صلاته فضمت العالم بأسره

وهل ننسى ان من بين العوائق التي تقف حائلاً في سبيل الصلاة ، تلك الروح الجاحدة الجامدة الحاقدة ، والخطايا الكامنة في الصدور ؟ حسناً قال اشعياء النبي في وصف صلاة الذين لا يخلصون النية لله في الصلاة :

electronic file created by cafis.org

« فحين تبسطون ايديكم استر عينيَّ عنكم . وان كثرتم الصلاة لا أسمع . ايديكم ملآنة دماً . اغتسلوا . تنقوا . اعزلوا شر افعالكم من أمام عينيَّ . كفوا عن الشر . تعلموا فعل الخير . اطلبوا الحق . انصفوا المظلوم . اقضوا لليتيم . حاموا عن الارملة »

(اشعياء ١:١٥—١٧)

ثم عاد يقول عند ختام سفره :

« ها ان يد الرب لم تقصر عن ان تخلص . ولم تثقل اذنه عن ان تسمع بل آثامكم صارت فاصلة بينكم و بين الهكم . وخطاياكم سترت وجهه عنكم حتى لا يسمع » (اشعياء ٥٩:و١—٢)

كيف نتوقع ان ننال بركة عند مذبح الصلاة ما لم نكن متصالحين مع اخوتنا؟ بل كيف نجرؤ على ان نطلب من الله ان «يغفر لنا ذنو بنا» ما لم نغفر نحن أيضاً لمن يذنبون الينا ؟ وكم من مرة تكون صلاتنا فاترة لاننا مع معرفتنا بخطايانا لم نعترف بها امام الله . بل كم من مرة طلبنا الغفران من الله من غير شعور بالخجل من خطايانا عند اعترافنا بها ، ولا بالتعبد والشكران عند نوالنا الغفران ! ؟ فلا عجب والحالة هذه اذا كانت صلاتنا لاجل الآخرين قليلة وهزيلة ؟ ان اصلاح صلاتنا يستلزم اصلاح طرقنا وتحسين علائقنا الحبية بالآخرين : « لان من لا يحب اخاه الذي يبصره كيف يقدر ان يحب الله الذي لم يبصره » ؟ (١ يوحنا ٤:٢٠) . ولقد اجاد جون دَن احد الطهوريين الاقدمين حيث قال :

« ان الله يحسب خطية تجاهله اشنع من خطية مقاومته . فتجاهلنا اياه

electronic file created by cafis.org

يجرح قلبه اكثر من تعدينا على شريعته »

وهنالك عائق آخر يقف حائلاً في سبيل الصلاة — قد أشار اليه بطرس الرسول في رسالته الاولى في حديثه عن الواجبات الزوجية المتبادلة (١ بطرس ٣:٧) فالبيت هو مهبط المحبة والولاء ، ومنبت الشرف والكرامة والوفاء ، بين الزوجة وزوجها. ومتى كان البيت كذلك، انتفت منه العوامل التي «تعيق الصلوات» . وعند ما تتوفر المودة والعطف والشفقة والمجاملة في دائرة البيت، عندئذ يصبح المذبح العائلي مركز الجاذبية في الالفة البيتية المسيحية ، ومتى انعدمت كل هذه الصفات النبيلة اضحت الصلاة مهزلة . فالصلاة هي المحك الحقيقي للاخلاص — بشرط ان تكون حقيقية . قديماً كتب الاسقف لانسيلوت اندروز مقدمة لصلاة عائلية ، تُتلى عند العشاء ، قال :

اللهم . لقد هر بنا منك وأنتَ تسأل عنا
واهملناك وانت بحبك قد غمرتنا
وصممنا اذاننا عن سماع صوتك ، وانت تستمع لنا وتكلمنا
وحوّلنا وجوهنا عنك ، وانت تمد يدك الطهورة الينا
ونسيناك حال كونك محسن الينا
واحتقرنا تأديبك واصلاحك ايانا »

بمثل هذه الاعترافات يجب أن تنطق شفاهنا وتفيض قلوبنا . فيمكننا ان نذيب كل العوائق التي تقف حائلاً دون صلاتنا ، فتتم لنا مواعيد الله العظمى ، ونتحقق حضوره معنا متى طلبناه من كل قلوبنا ، وكنا في طلبنا اياه مخلصين

electronic file created by cafis.org

الفصل السابع

صلاة الغير المسيحيين والمرسليات

عرفنا في فصل سابق ان الصلاة ركن عامٌّ مشترك في كل دين . ومهما أجهدنا أنفسنا ، لا يمكننا أن نُلمّ بكل البراهين الدالة على قِدَم وعمومية هذا العنصر السرّي الخفيّ في صلوات الامم الغير المسيحية . ولقد خصص فريدريخ هيلر مئة صفحة في موسوعة له عن صلوات وعادات القبائل الهمجية التي تقطن افريقيا واستراليا وامريكا فحدثنا عن :

« الامم التي في جهلها الظاهر والمستتر

تسجد للشجر وتنحني امام الحجر »

لكنها في الوقت نفسه تشعر بقُوَى سامية وتحس بروح علويّ ، اليه توجّه صلواتها . وكل يوم يمرّ بنا يقدم لنا أدلة واضحة تقرر هذه الحقيقة وتؤيدها . فصلاة الامم المتبدية تنمّ عن تعطّش النفس البشرية وتشهد للنعمة الالهية العامة التي تصوغ قلوب جميع البشر سواء بسواء

الصلاة هي أقدم تعبير وأوضحه عن رعب الانسان ومخاوفه ، وعن شعوره الدائم بأفضال الله ومراحمه عليه . فالانسان الذي يصلي — مهما يكن نصيبه من البداوة — انما هو متصل بعالمين : — عالم الغيب ، وعالم الشهادة . لكن الانسان العديم الصلاة يحبس نفسه في عالم واحد — هو عالم المادة .

electronic file created by cafis.org

يقول بعض الهنود في صلواتهم : «يا أرواح الموتى . ارحمينا !» . ان هذه الصلاة على رغم قصرها تنمّ عن عقيدتين مسيحيتين اساسيتين : أولاهما الاعتقاد بحياةٍ بعد الموت . والثانيـة الاعتراف بحاجة الانسان الى رحمة علوية تمكنه من مواجهة صعاب الحياة . يحدثنا التاريخ عن بعض الهنود انهم عندما حاولوا عبور بركة رئيسية في بلادهم ، أعدوا زوارقهم ورفعوا الى «الروح العلويّ» صلاة حارة ، قالوا فيها :

«يا من أبدعت هذه البرْكة وخلقتنا نحن أولادك
اخضع هياج هذه المياه ، وأجزنا عليها بسلام»

فمن هذه الصلاة نستطيع أن نستخلص شيئاً عن ايمـــانهم بأبوّة الاله الخالق وقدرته الفائقة المسيطرة على الطبيعة

من المسلّم به ان صلوات الامم المتبدية هي في الغالب مقصورة على طلب النجاح الزمني ، والنصرة في الحرب والتمتع ببركات هذه الحياة الدنيا . لكننا نجدهم في بعض صلواتهم يرتقون فوق الماديات الى الروحيات و يسمون من العرضيات الى الجوهريات . فاذا كانت الصلاة الحقة هي التسامي بالنفس الى حضرة الله ، فان في صلوات بعض هذه الامم ما يشجع المرسليات على ان يتخذوا منها أداة للاتصال بهـم والتفاهم معهم — واتخاذها أساساً لابلاغهم الرسالة المسيحية . حدثنا القس ألكساندر لبروي عن سكان احدى الغابات العظمى في افريقيا قال: انهم يبتهلون الى الروح العليّ ان يحفظ حياة كل وليد جديد ، وينعم عليهـم بحصاد سخيٍّ وفير ، و يشفي مرضاهم ، و يجود عليهـم بالمطر الغزير ، و يهيىء لهم سلاماً يقيهم كل شرّ مستطير . الى أن قال :

electronic file created by cafis.org

«عادةً تُرفع الصلاة عندهم في شكل دعاء ، أو استنزال لعنة ، أو نقمة، أو رُقية . وفقاً للظروف والملابسات . وهم يتلون هذه الصلوات أو يترنمون بها و يوجهونها إما الى أرواح الموتى ، أو الى الاله العليّ» .

ثم نقل عن احد الكتاب طلبتين من طلباتهم — أولاهما ترفع لاجل انسان مريض :

«ربنا وسيدنا . نطلب اليك ان تشفي هذا المريض من علته . ونتوسل اليك ان تحرره وتداويه وتشفيه» . والثانية عن استنزال المطر :

«اللهم جُد علينا بالمطر . لاننا في بؤس وضيق — إننا نتعب ونكد ونحن ذريتك . جُد علينا بغيوم محملة أمطاراً ليجد الشعب طعاماً . نتوسل اليك أن تستجيبنا يالهنا وأبانا»

يقيناً ان الله الذي «يُعطي طعاماً لفراخ الغربان التي تصرخ» (مزمور ١٤٧ : ٩) ، لا يمكن أن يصمّ أذنيه عن صرخات أبنائه الذين ينادونه و يناجونه في الظلام . «الغارس الأذن ألا يسمع ؟ الصانع العين ألا يُبصر ؟ المؤدب الامم ألا يبكت ؟ المعلم الانسان معرفة . الرب يعرف أفكار الانسان»

كل الذين أتيحت لهم فرصة عاشروا فيها الامم الغير المسيحية : كالهنود والبوذيّين، والمسلمين واليهود — قد شعروا بان ضمائرهم تبكتهم كلما رأوا في غير المسيحيين حماسةً متأججةً نحو الغير المنظور،وجهاداً عنيفاً خالصاً في التماسهم وتلمُّسهم وجه الله ، وقابلوا كل ذلك بما يرونه في المسيحيين من فتور وجمود وجحود .حقاً ان الله لا يبالي بالوجوه وهو يعرف طالبيه الحقيقيّين من كل قبيلة وأمة ولسان و يكافئهم حقاً على طلبهم اياه

electronic file created by cafis.org

بكل قلوبهم

متى أراد الباحث ان يتبين القيمة الفعلية لمثل هذه الصلوات التي تُرفع الى الله من أمم تتلمس وجه الله في ظلامها، تعترضه مثل هذه الاسئلة : ما هي القيمة الخفيّة الباطنية لمثل هذه الصلوات ؟ وما هي قيمتها الظاهرة الخارجية؟ وما هو مدى تأثيرها في العوامل الخارجة عنها؟ وهل يسمع الله مثل هذه الصلوات ؟ ام ان خط تليفونهم لا يتصل بالسنترال الاعلى ؟ وهل لها من جواب ؟

ان الكتاب المقدس يريق نوراً على هذه الاسئلة فنستطيع ان نحظى منه بجواب . فقد سجل الكتاب صلوات كثيرين ممن كانوا خارج نطاق عهد اسرائيل. فقايين—قاتل أخيه—رفع في مرارته صلاة الى الله طالباً أن يقيه شر من يحاولون ان يقتصوا منه على فعلته الشنعاء . فأجابه الله الى ما طلب (تكوين ٤:١٣—١٧) . لان رحمته منذ الازل والى الابد . وهاجر صلّت طالبة ماء لابنها الذي كاد يقضي من شدة العطش . والاله الصالح تعطف عليها راحماً واستجاب دعاءها واستحيا ابنها (تكوين ٢١:١٥ — ٢٠) . والقابلتان المصريتان مع اننا لم نقرأ عنهما انهما صليتا ، الا أن الله كافأ عطفهما على بني اسرائيل. ويثرون حمو موسى لم يكن ضمن رعوية اسرائيل ، لكنه عرف الله وباركه قائلاً : «مبارك الرب الذي أنقذكم من أيدي المصريين ومن يد فرعون الذي أنقذ الشعب من تحت أيدي المصريين . الآن علمت ان الرب أعظم من جميع الآلهة» (خروج ١٨:١٠ و١١) . وراعوث المواببيّة ، بالرغم من كونها وثنيّة الاصل وعلى رغم زواجها المشوب بالاختلاط الأممي ،

electronic file created by cafis.org

تقدّم لنا خير مثال للولاء والوفاء والعفاف ، والامومة الطاهرة، والايمان الوطيد بالله . فلا شك انها كانت متعوِّدة على الصلاة قبل ان تفوه باقرارها الجليل ، الذي قالت فيه لحماتها : «حيثما ذهبتِ أذهب وحيثما بتِّ أبيتُ . شعبك شعبي والهك الهي» (راعوث ١:١٦) . ومن هذه السيدة وُلد عوبيد والد يسى أبي داود . فيا ترى هل كان سليمان متفكراً بها حينما صلى قائلاً :

«وكذلك الاجنبيّ الذي ليس من شعبك اسرائيل هو، وجاء من أرضٍ بعيدة من أجل اسمك . لانهم يسمعون باسمك العظيم و بيدك القوية وذراعك الممدودة . فمتى جاء وصلى في هذا البيت فاسمع أنت من السماء مكان سكناك وافعل حسب كل ما يدعو به اليك الاجنبي لكي يعلم كل شعوب الارض اسمك فيخافوك كشعبك اسرائيل . ولكي يعلموا انه دعي باسمك على هذا البيت الذي بنيت» (١ ملوك ٨:٤١—٤٣)

وراحاب الزانية قاطنة أريحا ، ونعمان السرياني ، وكورش الوثني الفارسي — كل هؤلاء نالوا من الله جواباً على أشواق قلوبهم العميقة ونالوا مراحم وهم خارج نطاق الشعب الاسرائيلي . ولسنا نعرف شخصاً غير المسيح قد نال الالقاب والمواعيد والبركات التي وُعد بها كورش في نبوات اشعياء

وفي قصة يونان المختصرة نعثر على ست صلوات منها صلاة الملاّحين الى آلهتهم. وعند ما ألقوا القرعة ليتبيّنوا ارادتها، ولما صلوا الى يهوه الهاسرائيل، استجيبت صلاتهم التي رفعوها في العاصفة، وقُبلت عهودهم ومواثيقهم . وكذلك صلاة يونان التي أظهر فيها ندامته من أعماق البحر ، قد سُمِعَت واستجيبت. وشكواه التي رفعها الى الله طالباً ان يعفى من الموت في ذلك الحين قد قبلت وأجيبت

electronic file created by cafis.org

وفي العهد الجديد نعثر على صلوات رُفعت من اناس لم يكونوا ضمن رعوية اسرائيل — امثال المجوس — والمرأة الكنعانية ، وكرنيليوس ، كل ذلك يذكرنا بأن :

لمراحم الله اتساعاً
يفوق سعة البحر
لان محبة الله أرحب
من سعة عقل البشر
وقلب القدير
يفيض رحمة وحناناً

وضع دكتور رو برت هيوم كتاباً سماه : « خزانة الديانات الحية » ضمنه صلوات مقتطفة من الكتب المقدسة التي تدين بها بعض القبائل السلالية. وفي باب الابتهال والتعبد أورد أمثلة جميلة للصلاة تشهد لواضع الكتاب وجامعه بدقة البحث وسعة الاطلاع وقوة المثابرة . ان ذلك الكتاب يشتمل على لآلىء درية ثمينة من صلوات البشر على مرّ الاجيال ، تتوجها كلها تلك اللؤلؤة التي لا تقوم بثمن — اعنى بها صلاة المسيح. وعند ما نقرأ هذه المختارات المعبرة عن اشواق القلب البشري ، يرجع الى ذاكرتنا ذلك القول الجليل : « يشبه ملكوت السموات انساناً تاجراً يطلب لآلىء حسنة». وقبل تجسد الكلمة بألف سنة ويزيد رفع احد « اشراف » الهنود صلاة قائلاً :

« من الوهمي اهدني الى الحقيقي
ومن الظلام قدني الى النور

electronic file created by cafis.org

ومن الموت سِرْ بي الى الخلود »

ومن الغريب ان هذه الصلاة ما زالت مستعملة في الهند الى وقتنا الحاضر.

وفي احدى ترنيمات « السخ » نجد هذه الصلاة المفرغة في قالب ترنيمة :

« أيها الانسان ! احتمِ في ذلك الرب الاله
الذي بنعمته يستر عيوبك
أيها الانسان ! مع كل تنهداتك اذكر الاله العليّ
الذي بلطفة قد ميزك عن سواك
فاترك ما عداه وكن عابداً إياه »

ومن العجب ان نجد « كبيراً » — أحد زعماء « السخ » يسمو من منحدرات الوثنية الى مرتفعات الايمان بالاله الواحد ، فيقول في صلاته :

« يا بحر المراحم الخضمّ
أنر بصيرتي
كي احبك يا الهي
اللهم عرفني انك قريبٌ منيّ
لاننا على مدى الايام نحن أولادك
وانت اللهم سيدنا
أنت لنا أرحم من الأب وأحنّ من الام »

وفي ديانة زرواستر نلتقي بصلوات جميلة تُرفع في التعبد والتمجيد والابتهال :

اني أتحدّث عن ذاك الذي هو أعظم العظماء

electronic file created by cafis.org

ممجدا ذلك « الحق » الذي هو كثير المراحم على جميع الاحياء
أهورا مازدا الذي قد رُبيت على تمجيده وعبادته
فليعلّمني بحكمته ما هو حق
لا عيش للحق ما دام فيَّ قلب ينبض
فأنا له وأنا عبده ، يا الهي ما دمت حياً
فليت ربّ الحياة
يحقق حسب ارادته السامية بالفكر الصالح
المثل الاعلى الذي يريد ان يرفعنا اليه »

وكل سائح اتفق له ان زار الشرق الأدنى ، يدوي في أذنيه «الأذان» الذي سمعه من المؤذّن من مأذنة الجامع ، ويرتسم امام مخيلته منظر جماهير المصلين الذين ينتظمون صفوفاً داخل الجوامع وخارجها ليؤدوا فريضة الصلاة لله . ولا شك ان صلوات المسلم الجهرية والسرية هي نقطة الاتصال التي يرتكز عليها المرسل في ابلاغ المسلم رسالة الخلاص المقدمة في الانجيل . ان حياة المسلمين الدينية تتركز في الخمس مرات التي يصلّون فيها الى الله . ويرى الناظر الى تلك الجموع الزاخرة شدة الغيرة والتعبد لله . وهذا يُرى بكل وضوح على ملامحهم التي تنم عن شيء غير قليل من الاخلاص والهدوء . لان المسلم المصلي يكون عادة منصباً بكلياته وجزئياته في صلاته . ومع ان عدداً غير قليل منهم تتمثل فيه الفريسية المتطرفة فيطيلون الصلاة لعلة ولذلك يكررون الكلام باطلاً ولكن لا ينكر ان بينهم جماعة يمثلون الروح التائبة التي ملأت قلب العشار الذي تاب واناب وبكى واسترحم . فما هي

electronic file created by cafis.org

ملاحظتنا على مثل هذه الصلوات التي يرفعها غير المسيحيين ؟

وهنا أرى المجال متسعاً امامي لأورد حادثة من اختباري الخاص :

ففي ذات صباحٍ ما، منذ بضعة أعوام، كنت مسافراً في احدى البواخر على متن المحيط الهندي، وكنت وقتئذ أطالع كتاباً يتضمن بعض الصلوات الاسلامية، كان قد طبع في كولومبو باللغتين — العربية والتاملية. والصلوات المتضمنة فيه من صلوات الدراويش النقشبنديين فألفيتها نموذجاً للصلوات التي نسمعها في كل مكان على السنة الشعب. وها نحن اولاء نورد نموذجاً من هذه الصلوات الجميلة : « اللهم اني مُفلسٌ حقاً. وها انا اقف امام باب مراحمك. حقاً انا غارق في لُجٍ من الآثام. فاللهم اصفح لي من اجل اسمك العظيم. بالحقيقة انا غريب ضالّ غاوٍ، ورقٌّ ذليل ليس لي ما اتقدم به اليك سوى اهمالي ومعاصي. ان خطاياي تفوق رمل البحر عدّاً. فاصفح لي واعفُ عني. امحُ معاصيَّ وخذ بيدي وتولاني بحكمتك وقدرتك. ان قلبي سقيم حقاً ولكنك قادر على شفائه. انني في بؤس حالي لا اقوى على اتيان أي عمل صالح. لقد كثرت آثامي، وثقلت معاصي لان قدرتي على الطاعة مصابة بالشلل والعجز. فاللهم الهب قلبي بكلمة منك، كما الهبت قلب ابرهيم فكانت نارك السماوية برداً وسلاماً عليه.

هذه صلاة للصفح والغفران ما أجملها

وهنالك مثال آخر، نعني به فاتحة القرآن :

« بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

electronic file created by cafis.org

الرحمن الرحيم
مالك يوم الدين
اياك نعبد واياك نستعين
اهدنا السراط المستقيم
سراط الذين أنعمتَ عليهم
غير المغضوب عليهم
ولا الضالين
آمين»

(السورة الاولى في القرآن)

ولقد تأثر الدكتور كامبل مورجان لما اطلع على هذه الصلاة التي يرفعها الى الله ملايين من البشر وقد ظلوا على هذا المنوال ثلاثة عشر قرناً . وتعبيراً عن شدّة تأثره كتب العبارة الآتيـة بحروف مفخمة وعلقها على واجهة قاعة الاجتماعات في كنيسة وستمنستر :

اللهـم . يا من ينحني امامك العالم الاسـلامي
متعبداً خاشعاً ضارعاً خمس مرات في اليوم ارحم اللهم
ذلك الشعب وأعلن لهم مسيحك المختار

والغزالي ، ذلك العالم المُسـلِم المتصوِّف، الملقَّب بـ«حجَّة الاسـلام» المتوفّي عام ١١١١ ميلادي ، كتب الشيء الكثير عن الصلاة وسر الاختلاء

electronic file created by cafis.org

بالله — وهو بلا شك في مقدمة أعلام الفكر الاسلامي — وقد ازداد نفوذه وسحر تأثيره في القرن الماضي بنوع خاص. كان مفكراً عميقاً باطنياً وقد طلب الله بكل قلبه وكان له بعض الالمام بكلمات الانجيل، الا انه كرس حياته للدفاع عن الاسلام فلا غرو اذ خلع عليه التاريخ لقب «حجّة الاسلام».

ولقد ضرب بسهم في تعليمه عن الصلاة فوصفها بالقول: «الصلاة هي تقرّب من الله وهي هبة نقدمها لملك الملوك... الصلاة الحقة تتألف من ستة عناصر: حضور القلب، وانتباه الذهن، وتمجيد الله، والخوف، والرجاء، والحياء»... «لا يكفي المصلي ان يوجه وجهه نحو القبلة، لان القلب لا يتوجه حقاً الى الله الا باعتزاله كل شيء ليكون في محضر الله». وقد وضع الغزالي صلاة للغفران قال فيها: «اللهم اغفر ذنبي واعف عن جهلي و إفراطي فيما أتيت. فأنت أعلم مني بكل شيء. اللهم اغفر لي صغائري وزلاتي، وكل مقاصدي السيئة، وكل فعالي. اللهم اغفر لي ما اقترفت في ما مضى، وكل ما أنوي أن ارتكبه في المستقبل، وكل ما أنا مُصرٌّ عليه في اعماق نفسي. اغفر لي كل ما أبطنتُ وأظهرت وكل ما ظهر لديك مني وخفي عني، فأنت أدرى به مني. فأنت الأول والآخر وأنت على كل شيء قدير»، وهكذا كل تعاليم الغزالي عن الصلاة والتدرب على الشعور بحضرة الله يشبه على نوع ما، كتابات بعض المتصوفين، من المسيحيين. وفي كتابه المسمى «البداية» قال:

«اعلم ان رفيقك الذي لا يبارحك في الدار وفي الخارج، في منامك وفي يقظتك، في مماتك وفي حياتك، انما هو ربك وسيدك، وخالقك وحافظك وكلما ذكرته وجدته عن جانبك. لان الله نفسه قد قال: «أنا خليل اصغي

electronic file created by cafis.org

لكل من يذكرني» . وكلما كان قلبك مثقلاً بالأحزان بسبب اهمالك أمر دينك، وجدت فيه الصديق الملازم لك لأنه سبحانه وتعالى قد قال : «أنا مع المنكسري القلوب في سبيلي» . فلو عرفته كما وجب لاتخذته لك خير رفيق وهجرت كل شيء في سبيله»

هذه كلمات شريفة تنم عن حياة مشبعة بالتعبد الحقيقي

فمن المحال، والحال على هذا المنوال، ان نطّلع على صلوات الغير المسيحيين الا و يتجلّي لنا ان هنالك نقطة تماس واتصال، منها تبلّغهم رسالة الانجيل. فالصلوات والمذابح المقامة «للاله المجهول» انما هي تحريض للمرسلين مثلما كانت تحريضاً لبولس الرسول من قبل . وفي الواقع نحن مجرّبون ان نتغاضى عن أشواق النفوس المتعطشة الى الله من أراضٍ بعيدة

«فكم من نفوس في رحابة العالم الفسيح
تتوق اليك اللهم لترتمي في أحضانك
وكم من دموع بشرية مسكوبة عند قدميك
وقلوب انسانية تشتاق الى الراحة بين راحتيك
فالكل اليك متعطش كما يتعطش الزهر الى القطر
وكما تحن الاعشاب الذابلة الى وابل المطر
انهم يترجونك يا خالق السموات
محاولين أن يرتقوا الى محضرك يا فادي الخطاة»

ويحتفظ لنا سجل التاريخ بصلاة رفعها اغسطينوس، وهي تسترعي منا كل التفات :

electronic file created by cafis.org

أيها الاله الحقّ . أنت في كل مكان مستمع لصلوات كل الذين التجأوا اليك وأجبت سؤلهم . نعم قد أجبتهم جميعاً بصراحة ولو ان الكل لم يقووا على تبيانها . لأنهم لا يسمعون منك دائماً ما يلذ لهم سمعه . ان خادمك الأمين هو الذي يلذ له ان يسمع ما تقوله له وليس هو ذاك الذي يتطلع اليك لتسمعه على الدوام ما يلذ له سمعه»

والآن بعد ان تبيَّنَّا شيئاً عن صلوات الغير المسيحيّين ، بقي علينا ان نشير الى هذه الحقيقة الاساسيَّة : وهي انه يوجد بون شاسع بين صلاة الغير المسيحيّ ، وصلاة المؤمن الحقيقي . فصلاة المهاتما غاندي مثلاً تختلف كل الاختلاف عن صلاة أحقر هنديّ من الذين قبلوا المسيح مخلِّصاً وربّاً. والفرق في النوع : ذلك ان صلاة المسيحي مرفوعة الى الله باسم المسيح ، وفق ارادة الله ، وفي قوة الروح القدس . ولا يُتاح للانسان ان يصلي على هذا المنوال الا متى كان له اتحاد وثيق ثابت بالمسيح

ولقد حرص لوقا الطبيب البشير على ان يلقي نوراً ساطعاً على حياة بولس بعد تجديده حالاً فقال عنه : «هوذا يصلي» . فشاول الفريسي كان يهودياً متعبداً تقياً وقد صلى كثيراً سراً وجهراً . لكن بعد ان فني الطرسوسي شاول في بولس الرسول تغيَّرت صلاته كل التغير على أساس أول صلاة رفعها الى الله بعد تجديده : « يا رب ماذا تريد مني أن أفعل» (أعمال ٩:٦ و١١) فصلوات شاول كانت مطبوعة بطابع العهد القديم ، وصلوات بولس كانت في اسم المسيح و باسمه

وفي خطاب المسيح الوداعي لتلاميذه ، ألقى عليهم درساً غاية في الأهمية

electronic file created by cafis.org

عن الصلاة ، فكان ذلك الدرس مسك الختام لتعاليمه القدسية الجليلة : «الحق الحق أقول لكم . ان كل ما طلبتم من الآب باسمي يعطيكم . الى الآن لم تطلبوا شيئاً باسمي . اطلبوا تأخذوا ليكون فرحكم كاملاً » (يوحنا ١٦ : ٢٣ و٢٤). هذه مبادىء العهد الجديد الاساسية للصلاة. والمستفاد من تعاليم المسيح ورسله ان الصلاة باسمه تعني ان نعتمد على فدائه الذي صنعه لأجلنا وان نطلب الأشياء التي نتمناها ، ونحن في روح المسيح متحدون اتحاداً حيوياً به

ان صلاة الغير المسيحيين هي على أكثر تقدير ، في دار الهيكل . ولكن الذين نالوا حياة التبني وصاروا في عداد بني الله ، انما يتقدمون بثقة الى قدس الأقداس، بدم المسيح، بذلك «الطريق الذي كرسه لنا حياً حديثاً بالحجاب أي جسده»

والاتحاد بالمسيح معناه تبادل المصلحة معه . هذا يرفع الصلاة الى أرقى مستوى : «ان ثبتم فيَّ وثبت كلامي فيكم تطلبون ما تريدون فيكون لكم» (يوحنا ١٥ : ٧) . فكل تعريف عن الصلاة يصفها بأنها ممارسة عامة مشتركة بين جميع الأمم في كل دين ، لا يؤدي الغرض أحسن أداء ، ولا يحيط باسمى معاني الصلاة المسيحية . لأنها تختلف في النوع عن كل صلاة أخرى . ولعلَّ واضعي «أصول الايمان» كانوا قريبين من الحقيقة بقولهم : «ان الصلاة هي رفع تقديم أشواقنا الى الله عن الاشياء المرضية لارادته في اسم المسيح مع اعترافنا بخطايانا وشكرنا له على مراحمه». فعند ما يصبح أولئك البعيدون عن الله قريبين منه في المسيح و يتقدمون اليه في الصلاة ، عندئذاك ينالون روح التبني فيصرخون يا أبا الآب «يا سامع الصلاة اليك يجيء كل بشر»

electronic file created by cafis.org

الفصل الثامن

الصـــــــلاة والمرسليات

منذ بدء عهد المرسليَّات في عليَّة أُورشليم ، والصـلاة هي سر القوة ، والثبات ، والنصرة . فتاريخ المرسليات هو تاريخ الصلاة المستجابة . ومنذ يوم الخمسين الى الاجتماع التاريخي الذي انعقد في هيستاك في نيوانجلاند ، ومنـذ الأيام التي وطِئت فيها قدما روبرت مورسون أرض الصين الى يوم استشهاد يوحنا وبني سام ، والصلاة هي نبع القوَّة وسر النصرة الروحية

وكل المرسلين العظام الذين صـارت أسماؤهم اعلاماً في سجلِّ الخدمـة العامة ، وطلائع في أعمال الخير كانوا قبل كل شيء رجالاً عظاماً في الصلاة . وبولس الرسول يُحسَب في طليعة رجال الصلاة كما يتبين من حياته ورسائله اذ كان في كل شيء وفي كل حال يبتدىء بالصلاة ، ويستمر مصلياً ، ويختتم بالصلاة . وسنرى فيما بعد انه كان يلجأ الى الصلاة في كل الأزمات والملمات التي قابلته في الحيـاة . فالحافز الاول هبط اليـه وهو جاثٍ على ركبتيه في أورشليم : «وحدث لي بعد ما رجعتُ الى أورشليم وكنت أصلي في الهيكل اني حصَلتُ في غيبةٍ . . فرأيته قائلاً لي اسرع واخرج عاجلاً من أورشليم . . . فقال لي اذهب فاني سأرسلك الى الأمم بعيداً» . وسمعان بطرس كان مصلياً عند ما رأى تلك الرؤيا التي أعلنت له محبة الله لجميع البشر على السواء. ويحدثنا التاريخ عن سانت باترك ان الصلاة كانت أقوى حافز له على رحلاته

electronic file created by cafis.org

التبشيرية وأمدّته بقوة واجهَ بها الملمات والاضطهادات وحيداً منفرداً . ومع ان التاريخ لم يحتفظ الا بالنذر اليسير من كتاباته ولكن يكفينا منه كتابه القيّم : «درع الصلاة» فهو خير ذُخر وأجمل كنز للصلاة الخشوعية في تاريخ المرسليات

وريموند لل أول مُرسَل المسلمين كان قويّ الاقتناع بأن أمضى سلاح — بل السلاح الأوحد — الذي به يصرع المؤمن جيوش الظلام هو الصلاة . وبين كتاباته التي سطّرها في عصر الصليبيّين ، ومحاكم التفتيش، قوله: «أيها الرب يسوع اني أعتقد اعتقاداً وطيداً بان غزو الأراضي المقدسة لا يتم الا بنفس تلك الوسيلة التي رسمتها أنت ونسج فيها على منوالك تلاميذك — بالمحبة بالصلاة، بالدموع، ببذل النفس الغالية رخيصة على مذبح الخدمة والتضحية. واذا كان قد بدا ان امتلاك القبر المقدس والأرض المقدسة لا يتم الا بقوة السلاح ، اذاً فليتقدم الرهبان في حلل الأبطال القديسين متزينين بعلامة الصليب وممتلئين بنعمة الروح القدس ليعلنوا لغير المؤمنين حقّ آلام فدائك. لتغمرهم محبتك القدسيّة فتتفجر مآقي عيونهم بالدمع الغزير، ولتنسكب آخر قطرة من دمائهم مثلما فعلت أنت حباً بهم

«يا رب السماء ، ويا أبا كل الازمات ، عند ما أرسلت ابنك ليلبس طبيعتنا البشرية، قد عاش هو وتلاميذه مسالمين لليهود والفريسيين وسائر الناس. لم يحاول قطّ ، بعمل من أعمال العنف والقسوة، ان يسبي انساناً ليجعله ضمن أتباعه . وما قصد مرّة ان يرد المثل بالمثل لأعاديه ومضطهديه . بهذه المسالمة قصد المسيح ان يردّ الضالّين الى معرفة الحق . فلعل أتباعك والمؤمنين بك

electronic file created by cafis.org

ينسجون على منوالك يا أيها الفادي ، في معاملة اخوتهم بني اسماعيل»

وفرنسيس الاسيسي ، وزفيير ، ووليم كاري ، وهنري مارتن ، وديفد لفنستون وديفد برينارد ، وماري موفات وماري سليسور ، وجيمس جلمور ، وان تباينت مؤهلاتهم وكفاآتهم ، الا انهم كانوا شركاء في هذه الهبة الواحدة التي يمنحها الروح القدس — هبة الصلاة والتضرع لأجل الآخرين . وكل من يطالع تراجم هذه الشخصيات البارزة يجدها كلها شاهدة شهادة عالية ناطقة لقدرة الله الفائقة في اجابة الصلوات

لقد استطاعوا بهذه القوة السحرية العجيبة — قوة الصلاة — ان يواجهوا الاخطار والوحشة والمقاومات بقلوب عامرة بالايمان غير هيابة ولا وجلة . ان صلواتهم تذكرنا بصلاة يهوشافاط : «يا الهنا اما تقضي عليهم لأنه ليس فينا قوة امام هذا الجمهور الكثير الآتي علينا ونحن لا نعلم ماذا نعمل ولكن نحوك أعيننا» (٢ أيام ٢٠ : ١٢) . ففي حياة تلك الشخصيات الكبيرة كما في حياة يهوشافاط ملك اسرائيل تتجلّى هذه الحقيقة واضحة للعيان وهي: «ان يأس الانسان خير فرصة لاظهار بأس الله»

وحريّ بنا ان نذكر ان أولئك الذين خاطروا بحياتهم لاجل الرب يسوع كانوا له خير سفراء في اقاصي البلاد وختموا شهادتهم بالاستشهاد ، وكانوا شديدي الاعتقاد بقدرة الصلاة. فمن أقوال جيمس جلمور المرسل في بلاد المغول : «اذا عدمت مصلين لاجلي أصبحت كغائص في قاع البحر ، والهواء منقطع عنه . أو صرتُ كاحد رجال المطافىء في قلب عمارة تلتهمها النيران و بيده خرطوم نفدت المياه من معينه» . ولقد عبرّ جورج اليوت عن ثقته بالله

electronic file created by cafis.org

وحبه العظيم للهنود بشعاره الذي قال فيه: «الصلاة والجهاد في الايمان بالمسيح يأتيان بالمعجزات» . واليك الكلمة الختامية التي لفظها جون هانت على فراش الموت : « اصلي لاجل فيجي. يا رب خلّص فيجي »

ولقد شهد ادونيرام جدسون لقوة الصلاة المقتدرة ، بقوله: « ما انشغلت قطّ بأمر ما ، وصليت باخلاص وحرارة لاجل موضوع ما ، الا وحصلت على جواب ما لصلاتي، في وقت ما، مهما طال الامد، و بشكل ما مهما اختلف هذا الشكل عما كنت اتخيله في فكري . لكنه جواب على كل حال . « وكانت حياة جون باتون شهادة حيّة ناطقة للصلاة المستجابة . بالصلاة كان يطلب الهداية في خدمته التبشيرية . بالصلاة اكتسب قوة على المثابرة في رحلاته المضنية المملة . بالصلاة كسب ثقة ومودّة الهمجيين الذين خدمهم . بالصلاة حفر آباراً فجادت له بالماء الغزير في امكنة ضنت بها على سواه ممن حفروا من قبله . بالصلاة شلّ ايدي المجرمين الذين حاولوا اغتيال حياته . بالصلاة استطاع ان ينتقي أدق الالفاظ في ترجمة الانجيل . بالصلاة بسط نفوذه وتأثيره على الشباب الذين صادفوه ابان اجازته في اسكتلاندة وأمريكا . وفي نور الابدية أمام محضر نفوس جمهور المفديين سيُباط اللثام عن النتائج الخفية التي كانت ثمرة صلوات رجل الله هذا

ولا شك ان تاريخ مرسلية الصين الداخلية عامر بالشهادات القوية المتواترة عن مكافأة الايمان في الصلاة . وما هذه بالمرسلية الاولى والاخيرة التي تدعم هذه الحقيقة وتؤيدها . فايمان فرنسيس زافيير كان مثال البطولة والاقدام تجاه المظالم والظلام حينما واجه الصين بالقول. « أيتها الصخرة الصماء

متى تنفتحين لخلصي؟» و بيتر باركر أول طبيب مرسل في بلاد الصين عرف سر الصلاة كما فهم سر مهنة الطب . وكل جمعية مرسلة في بلاد الصين — وكذلك كل مركز تبشيري هناك — الكل يشهد لاقتدار الصلاة. لكن اقوى الشهادات وأوضحها وأفعلها هي شهادة مرسلية الصين الداخلية التي كانت حياة هدسون تيلور — رجل الايمان بالله — خير مطلع لها وأجمل استهلال. ان ايمانه الساذج بقدرة الصلاة منذ نعومة أظفاره يستدعي كل اعجاب و يسترعى كل التفات. كان هذا المؤمن الجبار يعتقد ان الكتاب المقدس هو «سفر اليقينيات» و يؤمن ان الله الحي هو حقيقة يقينيه ثابتة: «فهو يعني مايقول و يفي بما وعد»

ان مرسلية الصين الداخلية قد تأسست عام ١٨٧٥ وهي تتألف الآن من ١٢٠٠ مرسل ومرسلة منتشرين في ٣٤٤ مركزاً تبشيرياً تتفرع منها ٢٠٠٠ محل تبشيري. منذ بدء عمل هذه المرسلية عمّدت أكثر من ٥٠٠٠ و ١٥٠ نفس وانشأت ونظمت ١٢٣٥ كنيسة . والطريقة التي حصلت بها هذه المرسليّة على المساعدات المالية من غير التجاء الى الحث والاستجداء لهي حقيقة بأن تُكتب في سجل المعجزات . فهي حجة دامغة لعناية الله الحيّ بشعبه . و يقيناً أن مفتاح هذا السرّ قد كشف عنه هدسون تيلور نفسه في خطاب ألقاه في مؤتمر المرسليات المسكوني الذي انعقد بمدينة نيو يورك عام ١٩٠٠ ، قال فيه :

«الله نفسه هو المنبع الاعظم للقوة . فقدرة الله . في متناولنا نحن البشر . فنحن اذا قوم فوق الطبيعة ، لاننا وُلِدنا ميلاداً جديداً فوق الطبيعة ، ومحروسون بقوة خارقة للطبيعة ، ونقتات بطعام فوق الطبيعة ، و يعلمنا استاذ

electronic file created by cafis.org

فوق الطبيعة من كتاب خارق للطبيعة. ويقودنا قائد فوق الطبيعة في موكب نصرته الى النصر المبين

«فالوقت الذي نقضيه بين يدي الله منتظرين ، لن يذهب ضياعاً . فهل تسمحون لي بأن أشير الى اجتماع صغير حوي اثنى عشر رجلاً وانعقد في نوفمبر سنة ١٨٨٦ وكنت أنا احد المجتمعين فيه ؟ شعرنا وقتئذ ونحن في مرسلية الصين الداخلية بحاجتنا العظمى الى الهداية الالهية والارشاد السماوي في مسألة تنظيم العمل وفي ضرورة تعزيز قوتنا بالمدد الكافي . فاجتمعت كلمتنا على عقد مؤتمر لنقضي فيه ثمانية أيام في صلاة متحدة انتظاراً للارشاد والعون الالهيين على ان نفرز منها أربعة أيام بالتتابع ، للصيام والصلاة . وقد تمّ لنا ذلك في شهر نوفمبر من عام ١٨٨٦ . فأرشدنا الله ان نصلي طالبين منه ان يرسل الينا مئة مرسل عن يد مجلتنا بانجلترا ما بين يناير — وسبتمبر سنة ١٨٨٧ . ومن المعلوم ان ايرادنا السنوي وقتئذٍ كان ثابتاً على نوعٍ ما منذ بضع سنين من ذلك التاريخ فكان يبلغ ٢٢٫٠٠٠ جنيها فكان علينا اذاً ان نطلب من الله امدادنا بمبلغ ١٠٫٠٠٠ جنيه أخرى علاوة على ذلك المبلغ الاساسي»

ولا تسل عن النتائج الباهرة التي كانت من ثمرات هذا المؤتمر الصغير . فقد أجاب الله صلوات رجاله وأرسل اليهم المرسلين الذين طلبوهم كاملي العدد وأرسل معهم ١١٫٠٠٠ جنيه من احد عشر شخصاً . حقاً ان صلاة الايمان هذه هي اكبر هبة من الله

electronic file created by cafis.org

والنهضة التبشيرية التي تزعمها وليم كاري ونفر قليل من رفاقه المعمدانيين، كانت وليدة الصلاة، واغتذت بالصلاة

ولقد صدق فيه — وليم كاري — هذا الوصف :

«شقَّ عليه ان يرى الناس الذين مات المسيح عنهم
جماعات جماعات موثقين بقيود جارحة قاسية
وهم محرومون من نور الحق الذي يبدّد الظلمات
و يبدد غيوم التعصب
لذلك جاهدَ جهاد الابطال
حتى وُفِق الى ترجمة كلمة الله
الى لغات أولئك البشر. فشفت ما كانوا فيه من سقام
فصار شعاره الخالد يدوي في أذان الأجيال
«توقعوا أشياء عظمى من الله رب الجميع
وأقدموا على أعمال عظمى تلبية لندائه الكريم»

أما الأشياء العظمى التي ننتظرها من الله، والأعمال العظمى التي أقدم عليها اجابة لنداء صوت الله، فاللسان يعجز عن وصفها، لكن ألسنة أهل الهند ما زالت الى اليوم تلهج بها

ان سجل تاريخ المرسليات هو أبلغ شهادة لهذه الحقيقة الجليلة — وهي ان انسكاب روح الله، ونهضة الكنائس، والاجتماعات الانتعاشية الكبرى، جاءت كلها نتيجة انتظار المؤمنين لله في الصلاة. فارسالية «الكوكب الفريد» المعمدانية في بلاد الهند، حيث اعتمد في يوم واحد ٢٢٢٢ نفساً، والنهضة

electronic file created by cafis.org

التي حدثت في طوكيو ببلاد اليابان عام ١٨٨٣ ، وتلك التي اضطرم لهيبها في مدرسة مس فسك بيور بميا سنة ١٨٤٦ ، والنهضة الكبرى التي غمرت سوماترا ونياس أبان الحرب الكبرى في وقت عانت فيه المرسلية الالمانية آلاماً وشدة ، والنهضة التي ألهبت أرض كوريا أخيراً ، وعمل الله العجيب بين طبقات المنبوذين في الهند الجنوبية — كل هذه السنة ناطقة وحجج لا تدحض على ان الصلاة والمرسليات صنوان لا يفترقان . هذه حقيقة ظاهرة في حياة الافراد ، والجماعات ، وفي تاريخ المسيحية بأسرها

كل عقدة في المسألة التبشيرية اليوم ، موقوف حلّها على الصلاة . حسناً قال الدكتور جون موط : «ان الموقف اليوم يتطلب من الكنيسة أن تفتح معين الموارد الالهية الخارقة ، بصلاة الايمان . فالله وحده هو القادر أن يضبط قلوب البشر ، وأن يطلق قوات الكنيسة من عقالها ، وأن يكسر شوكة الانانية البشرية و يمحق المطامع . والصلاة هي الاداة التي تبعث في البشر روح التطوّع فينتدبون أنفسهم للخدمة وهي التي تحرّض الخبيرين على امدادهم بالمال

وحريّ بنا أن نتعلّم دروساً في الايمان من اختبارات الراعي جوستر الذي عاش في غضون عام ١٨٢٦ . ذاك الذي اذ بلغ الثالثة والستين من العمر نبذ الوسائل الالية المألوفة في بافاريا المستخدمة لجمع المال للمرسليات . فابتكر نظاماً جديداً سداه الصلاة ولحمته الايمان . فلما كان راعياً لكنيسة بيت لحم في برلين شرع في ارسال مرسلين الى الحقول التبشيرية النائية ومنذ ذلك الوقت الى يوم وفاته استطاع أن يرسل مئة وأربعين مرسلاً ومرسلة وأمدهم

electronic file created by cafis.org

بكل مستلزماتهم ، عن طريق الصلاة . ومن أقواله المأثورة : «اني أفضل أن أدق ناقوس التوسل على أن أحمل جرس التسوُّل» . فلا غرو اذا كان هذا الراعي الجليل قد كتب أبهى صفحة في تاريخ المرسليات الى الهنود ، بواسطة مرسليته الملقبة باسمه

وفي عام ١٨٦٤ استطاع الراعي لويس هارمز بقوة الايمان والصلاة ان يكون مقدام فلاَّحي كنيسة هرمانز بورج في رفع لواء الانجيل الى أبعد البلاد ، فتمكن من ارسال ٢٥٠ مرسلاً في ٣١ سنة . ولم تمضِ على مرسليته سوى أربعين سنة حتى كان قد ربح للمسيح ما يربي عن ١٢٫٠٠٠ من مخالب الأوثان بواسطة مرسليته الناهضة

اذا كان تاريخ اقتدار الصلاة في عمل المرسليات ناصع الصفحات بهذا المقدار ، فما أحوجنا الى الاستمتاع بهذه الهبة الجليلة والانتفاع بها . ان هذه الهبة الجليلة — الصلاة — التي تقتدر مع الله وتظفر بالبشر لهي قنية أفخر من الذهب الابريز . لقد آن للكنيسة ان تعترف بعجز وسائلها الحالية عن سد ما يتطلبه العالم منها ، فتلجأ الى موارد الصلاة التي لا ينضب لها معين فتمدها بغمر جارف من فيض القوة الروحية . هذا هو مفتاح مشكلة المرسليات بأسرها

منذ بضع سنوات وضع أسقف سلسبوري الشروط الاساسية الثلاثة التي رآها لازمة للصلاة المقتدرة الفعالة — وهي — القابلية ، والطاعة ، والمحدودية والتعيين

electronic file created by cafis.org

القابلية — ان العنصر الجوهري في كل صلاة هو ان تنفتح كل نوافذ النفس بسعة لترحب بقدوم روح الله اليها وان تنتظم في سلك ارادته عن رضى وطيب خاطر . لأن الثلاث العبارات الأولى في الصلاة الربانية تعيّن موقف الانسان المصلي امام الله

الطاعة — يجب أن يتسلح المصلي بنية خالصة لتعرف ارادة الله والاستعداد التام للعمل بموجبها . وأن يكون المصلي متحفزاً للقيام بعمل حاسم مهما انطوى على تضحيات ومخاطر لاعتزال كل أعماله وعوائده السالفة لأن قوة المسيح لتلاميذه — كانت ولا تزال — موقوفة على استعداد التلاميذ أن يعملوا ما يرضيه

التعيين — بما أن الله قد دعانا لأن نشاطره قوته المبدعة المجدّدة ، وبما أن رغبتنا هي عنصر لازم لما يكون عليه العالم غداً : وبما أن نداءه المستمر لنا هو «ماذا تريدون مني» ؟ لذلك صار لزاماً علينا أن نعيّن طلبنا بشكل واضح لا يقبل اللبس والابهام

اننا متى وفّينا هذه الشروط ، أصبحنا مؤهلين للصلاة لأجل العمل التبشيري . وما أفسح الميدان امام الصلاة في سبيل امتداد ملكوت الله

واليك ما قاله الدكتور جوهانز وارنك في وصف ماهية الصلاة لأجل العمل التبشيري في الخارج — قال: «الصلاة هي قبل كل شيء — حسبما أوصى المسيح ، طلب من الله أن يرسل فعلة لحصاده ، ثم هي طلب المزيد منهم في العدد وفي النوع ، سواء أكانوا عمالاً وطنيين أو مساعدين أو مرسلين من الخارج . وبهذه المناسبة أشارَ الى صلوات بولس لأجل شركائه في الخدمة

electronic file created by cafis.org

واعتبرها المثل الأعلى للصلاة في هذا الباب في كل آن . ولا شك ان رسائله عامرة بمثل هذه الصلوات

وهي تتضمن ، عدا ذلك ، الصلاة لأجل المتجدّدين ، والباحثين ، والمرتدّين وكل الذين ما زالوا أطفالاً في المسيح تنتابهم التجارب من كل حدب وصوب . والتوسل لأجل الكنائس الوطنية — وليدة عمل المرسليات لكي تحصل على الاستقلال الاداري والمالي والتبشيري والابتهال لأجل «الملوك وكل الذين هم في منصب» في كل قطر ومصر ، لتنفتح الأبواب امام الانجيل ولا يقف في سبيله حائل أو مانع ، والتضرع لأجل السلام والاخاء بين الأمم

ولا يفوتنا ان نصلي لأجل أعداء العمل التبشيري ان داخل البلاد أو خارجها . ولأجل الذين يقاومون الانجيل بتحقير وزراية ، و يضطهدون كنيسة المسيح ظلماً وعدواناً . ولأجل كهنة الأديان الأخرى وأئمة المسلمين

وأخيراً يجب أن يكون الشكر متخللاً كل صلواتنا لأجل جميل صنائع الله معنا فيما مضى غير ناسين معجزات نعمته ، وقوة روحه ، وغير متناسين عمل الايمان وتعب المحبة وصبر الرجاء الظاهر في حياة المرسلين. اننا متى نسجنا في صلواتنا على هذا المنوال استطعنا أن نتحقق شيئاً عن العرض والطول والعمق والعلو في هيكل الصلاة لأجل المرسليات

electronic file created by cafis.org

الفصل التاسع

نماذج من صلوات العهد القديم

ان تاريخ الكتاب المقدس في اختبار البشر ، شبيه برق قديم خطت عليه الايادي كتابات متباينة في أجيال متعاقبة ، بعضها فوق بعض . وهو مضيء بمشاعر البشر المختلفة في كل عصر ومصر . فالكتاب المقدس يلائم كل ثنايا القلب وفجواته . فهو كتاب عام . وقد يكون هذا القول اكثر ملائمة للعهد القديم منه للعهد الجديد، لاننا نلتقي في العهد القديم بمرآة المزامير الصافية التي وصفها أحدهم بـ « قلب الكتاب » وقال فيها كلفن : انها « تشريح لكل عناصر النفس الانسانية». في هذا السفر الواحد تواجهنا كل الغموم والاحزان ، والمخاوف والهواجس ، والمعاثر ، والآلام ، والآمال ، والمسرات ، والتهليلات التي تختبرها النفس . فلا عجب اذا اصبح سفر المزامير كتاب الصلاة للمسيحيين في كل الاجيال

ان نهر البهجة الالهية فائض بالمياة للنفوس العطشى . وقد طمت مياهه وطفت فوق شطوطه فاضحت ماء حياة للامم التي غمرت ارضها . حسناً قال جيمس جلهور الذي كان مرسلاً في بلاد المغول :

« عند ما اشعر أنني غير قادر على تركيز أفكاري للتقدم في الصلاة ، افتح سفر المزامير ، وألقي بزورق نفسي في مياهه الجارية ، فتحمل نفسي مع تياره ، الذي يتجه الى الله دوماً . وفي معظم المواضع اراه تياراً قوياً عميقاً»

electronic file created by cafis.org

والآن قبل ان نتأمل في صلوات بطاركة ، وأنبياء ، وقديسي العهد القديم ، يجمل بنا ان نقف هنيهة امام سفر الاسفار — سفر المزامير — الذي ينبئنا عن تاريخ الصلاة ، وسرها ، وفنها . واننا نراه من الصعوبة بمكان ان نلتمس الكلمات التي تسعفنا في التعبير عن علو وسعة وعمق الاختبار الروحي الذي يتمع به الانسان في شركته مع الله بالصلاة . في سفر المزامير تتجلى لنا الصلاة كاملة في كل ركن من اركانها — التذلل ، والندامة ، والاعتراف ، والتمجيد والتضرع ، والتشفع ، والتوسل ، والشكر . وفوق ذلك انتظار النفس أمام الله في صمت وخشوع . ان لغة المزامير تلائم نفس الانسان في كل ظرف وفي كل حال . فسفر المزامير هو اقدم واقدس كل الاسفار التي جمعت بين دفتيها صلوات البشر السرية والجهرية . كنوزه لا تنفد . فلا غرو اذا اصبح النموذج الاعلى والنبع الذي لا ينضب له معين ، لصلوات اليهود والمسيحيين على مر الاجيال . فكتب الصلوات التي يستعملها اللاتين ، والارثوذكس ، والانجليكان ، تستمد جمال لغتها ، وعمق تعبيرها في الاعتراف والتضرع ، من سفر المزامير . هذا ما حمل وليم لو على ان ينصح لتلاميذه ان يهذبوا صلواتهم « بانتقاء اجمل العبارات واقدسها ، في التعبد والاعتراف ، والتوسل والتمجيد ، والندامة ، والتشكر ، من سفر المزامير ، وترتيبها وتبويبها ، لان هذا يذكي لهيب التعبد في نفوسهم . ويمكننا ان نضم الى قول وليم لو ، شهادة ماكس مولر فيما يختص بمقام المزامير الاسنى في آداب كل الاديان :

«ليس في مقدور أي ناقد منصف بعد اطلاعه على صلوات الامم الاخرى ومقارنتها بسفر المزامير ، ان ينكر هذه الحقيقة الناصعة : وهي ان سفر المزامير يمتاز

electronic file created by cafis.org

عن الاسفار التي تتضمن صلوات سائر الامم، في البساطة، والقوة، وسمو التعبير»

من أظهر اوصاف الصلوات المدونة في سفر المزامير، انها عمومية في اتجاهها، تبشيرية في روحها. ليس لها من مثيل في صلوات سائر الامم المطبوعة على الدوام بالطابع العنصري السلالي الضيق. فمع ان اليهود كانوا شعباً ذا طابع خاص ومدعوًّا من الله دعوة خاصة، لغرض خاص، الا اننا من ابرهيم الى ملاخي نسمع نغمة واضحة قوية: هي ان الله اراد باسرائيل ان يكون بركة لجميع الامم، وان مسيا هو الذي يملك على العالم بأسره

« فاجعلك امة عظيمة. وابارکك واعظم اسمك. وتكون بركة وتتبارك فيك جميع قبائل الارض » . . . . « ابارکك مباركة واكثر نسلك تكثيراً كنجوم السماء وكالرمل الذي على شاطىء البحر » . . . لانه من مشرق الشمس الى مغربها اسمي عظيم بين الامم وفي كل مكان يقرب لاسمي بخور وتقدمة طاهرة. لان اسمي عظيم بين الامم قال رب الجنود » (تكوين ٢:١٢، ١٧:٢٢ وملاخي ١١:١). ان هذه الفكرة عينها المتعلقة بالبركة العامة هي التي تشمل البشرية جمعاء عن طريق فداء اسرائيل. فقد ذكرت ايضاً في صلاة سليمان التي رفعها الى الله بمناسبة تدشين الهيكل، ووردت في نبوات بلعام، والبركات الموسوية، والنبوات التي استعرضت أمام البشر، ملكاً عاماً سعيداً يسوده السلام والبر في كتابات اشعياء، وأرميا، ودانيال، وحزقيال، والانبياء الصغار

غير ان هذه الرؤى والمواعيد قد تجلت بنوع خاص في الصلوات التي احتواها سفر المزامير، في شكل صلوات تبشيرية. ونغمة التتويج الرئيسية

electronic file created by cafis.org

نسمعها في المزمور الثاني : «اسألني فاعطيك الامم ميراثاً لك واقاصي الارض ملكاً لك». وفي المزمور الثاني والعشرين نجد القول : « تذكر وترجع الى الرب كل اقاصي الارض وتسجد قدامك كل قبائل الامم . لان للرب الملك وهو المتسلط على الامم »

اما الصلاة التي حواها المزمور السابع والستون فهي من اعظم الصلوات لاجل المرسليات في كل العهد القديم . ولعلها رُتبت اولاً للترنيم الدوري في عبادة الهيكل : « ليحنن الله علينا وليباركنا . لينر بوجهه علينا . . . لكي يعرف في الارض طريقك وفي كل الامم خلاصك . يحمدك الشعوب يا الله يحمدك الشعوب كلهم ...» . فما أعجب التأثير الذي توجده هذه الصلاة العامة الشاملة ! لاحظ اسماء الجمع في هذه الصلاة : « الامم » ، « الشعوب » « اقاصي الارض » . ولا تنس كلمة « كل » المتغلغلة في ثناياها . على هذا المثال نجد المزمورين السادس والتسعين، والمئة والواحد، فهما تبشيريان شاملان في اتجاههما .

« لتفرح السموات ولتبتهج الارض
ليعج البحر وملؤه ليجذل الحقل وما فيه
لترنم حينئذ كل اشجار الوعر امام الرب
لانه جاء ليدين الارض
يدين المسكونة بالعدل والشعوب بالامانة »

ولا تسل عن المزمور الثاني والسبعين فقد أضحى اساساً كبيراً لترنيمتين من أكبر الترنيمات التبشيرية التي يترنم بها المسيحيون. في هاتين الترنيمتين

electronic file created by cafis.org

المستمدتين من هذا المزمور ، ترتسم امامنا صورة ملكوت يسود فيه السلام والعدل بدل الحرب والنزاع حتى تمتلىء كل الارض من مجد الرب اله اسرائيل

ولقد استطاع جيمس واطس ان يمتلك ناصية اقصر المزامير و ينظم منه دعاء حاراً لاجل المرسليات في ثمانية اسطر . قال ما معناه :

من كل ساكن تحت قبة الفضاء
ليرتفع الحمد للرب ساكن السماء
مترنمين باسم الفادي المجيد
في كل ارض و بكل لسان طارف وتليد
أزلية هي مراحمك يا أيها العلي
وكلمتك تذيع الحق الازلي
وصوت حمدك يدوي من قطر الى قطر
الى ان تضمحل الشمس و يزول القمر

على هذا المنوال صارت مزامير العهد القديم أساساً للترنيمات والصلوات في كنيسة العهد الجديد . ولعل المسيح وتلاميذه لم يلجأوا الى مورد عداه ، في التعبد والصلاة . ولا يغرب عن أذهاننا ان الكنيسة الاولى كانت تتغذى بالكتب المقدسة التي كانت وقتئذ مقصورة على «موسى والانبياء» . وكانت كلها تشهد للمسيح

واذ ننتقل من دراسة الصلوات الواردة في سفر المزامير الى التأمل في بعض الصلوات التي رفعها بعض الافراد وسطرت على صفحات الاسفار

electronic file created by cafis.org

التاريخية ، والاسفار النبوية في العهد القديم ، نرى انفسنا أمام بحرٍ خضمّ زاخر باللآلىء الدرّية الثمينة ، فلا ندري أيها نختار وأيها نترك. ولكننا نكتفي بان ننتقي بعضها لاعتبارين — أولهما شخصية المصلي (كما في صلاة ابرهيم مثلا) وثانيهما، يختص بطبيعة الصلاة ذاتها، كما في صلاة آسا في عشية المعركة المعهودة:

ولبلوغ غرضنا عن اخصر طريق لنضرب الآن صفحاً عن بعض الصلوات المسطرة على صفحات العهد القديم على رغم أهميتها نظير — صلاة اسحق (تكوين ٢٥: ٢١) وصلوات أيوب ، وصلاة ملكي ادق (تكوين ١٤: ١٩ — ٢٠) وصلاة لوط (تكوين ١٩: ١٩) ، وصلاة بلعام (عدد ٢٣: ١٠)، وصلاة حنّة (١ صم ١: ٢٦) ، وصلاة منسى (٢ ايام ٣٣: ١٢) ، وصلاة ملك نينوى (يونان ٣: ٦)، وصلاة اشعياء في طلب النهضة (اشعياء ٦٤) ، وصلاة حزقيا (٢ ملوك ١٩: ١٤) . ونكتفي الآن بايراد ثمان صلوات هي — صلاة ابرهيم ،وصلاة يعقوب ،وصلاة موسى، وصلاة اليشع، وصلاة آسا،وصلاة نحميا وصلاة ارميا،وصلاة حبقوق. في هذه الصلوات نرى تنوّعاً عظيماً في الظروف والاتجاه ، لكننا نرى فيها كلها ذات الروح الواحد في الايمان والثقة بالله . ولقد وُفِّق هنري فروست الى جمع الجانب الاكبر من صلوات قديسي العهد القديم في كتيب ، عنوانه : « رجال الصلاة ». قال في مقدمته : « ان رجال الصلاة هم أقدر الناس في هذا الحياة الدنيا . لا لان الانسان شيء في ذاته ، بل لان الله هو كل شيء . فرجل الصلاة يضع نفسه في موقف المتوسّل،والله في موقف المحسن الجوّاد .وعند ما يُفسَح المجال لعمل نعمة الله ، فان فيض سيلها ينهمر فيغمر الارض ببركات تستحيل معها القفار بساتين وتصبح المعطشة

electronic file created by cafis.org

واحة نضيرة مزدهرة . ومتى رجعنا بذاكرتنا الى شعب الله المختار ، وأصغينا الى هدير صلواتهم وتضرعاتهم، أمكننا ان نتحقق ان المهمّ في الصلاة لا ان تكون نظريّة ، بل عمليّة مقتدرة في فعلها

فابرهيم دُعي خليل الله ، وهو ابو المؤمنين ، ولقد لُقّبَ حقاً بـ«أول مُرسَل الى ديار بعيدة» .لانه لبى نداء الله وترك أهله وعشيرته. و بين الصلاة المحفوظة له في سجل الكتاب ، صلاته التشفعيّة لاجل مدن الدائرة ، وقد رفعها الى الله بعد أن بلغ من العمر مئة عام . فامكنه أن يلمس امانة الله و يتيقن من مراحمه ، وهاك هي :

« فتقدم ابرهيم وقال افتهلك البار مع الاثيم . عسى أن يكون خمسون باراً في المدينة . أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين باراً الذين فيه . حاشا لك ان تفعل مثل هذا الامر أن تميت البار مع الاثيم فيكون البار كالاثيم . حاشا لك . أديان كل الارض لا يصنع عدلاً . فقال الرب ان وجدتُ في سدوم خمسين باراً في المدينة فاني اءفح عن المكان كله من أجلهم . فاجاب ابرهيم وقال اني قد شرعت أكلم المولى ، وأنا تراب ورماد . ربما نقص الخمسون باراً خمسة أتهلك كل المدينة بالخمسة . فقال لا أهلك ان وجدت هناك خمسة وأربعين . فعاد يكلمه أيضاً وقال عسى ان يوجد هناك اربعون . فقال لا أفعل من أجل الاربعين . فقال لا يسخط المولى فاتكلم عسى ان يوجد هناك ثلثون . فقال لا أفعل ان وجدت هناك ثلثين . فقال اني قد شرعت اكلم المولى عسى أن يوجد هناك عشرون . فقال لا أهلك من

electronic file created by cafis.org

أجل العشرين . فقال لا يسخط المولى فاتكلم هذه المرة فقط عسى ان يوجد هناك عشرة. فقال لا أهلك من أجل العشرة »

(تكوين ١٨: ٢٣—٣٣)

ولكن يظهر من سياق القصة كأن هذه الصلاة ذهبت هباءً . لأن لوطاً و بعض أفراد عائلته قد أُنقِذوا ، لكن مدن الدائرة قد هلكت . ولكن ما أعظم الدروس الكامنة بين ثنايا هذه الصلاة لمن يريد ان يتلقن و يتعلّم ! ! «أدّيان كل الأرض لا يصنع عدلاً » ؟ «حاشا لك أن تميت البار مع الاثيم فيكون البار كالاثيم . حاشا» . هذان السؤالان يحيّران المؤمنين مثلما حيّرا ابرهيم . وكذلك نحن أيضاً تصادفنا أحكام الله في التاريخ وتصادمنا ، فنضطر أن نسترحم الله بدموع سخينة وتنهدات عميقة . لقد اشمأز ابرهيم من مفاسد سدوم ، لكنه لما سمع بقضاء الله الوشيك ، فاض قلبه بالحنان نحوها فتضرّع لأجلها . فبرهن بذلك على انه «خليل الله» حقاً، وانه أبو كل الذين يفيضون بالعطف والحنان على الجماهير . هذا سر الصلاة التشفعية المثابرة المقتدرة

وهنالك صلاة أخرى مشهورة ، في العهد القديم ، ويحيط بها نفس هذا الغموض ، هي مصارعة يعقوب مع الملاك: «لا أطلقك ان لم تباركني . . .» «وسأل يعقوبُ وقال أخبرني باسمك» . هذه صفحة مقدسة في تاريخ حياة يعقوب . ومع انه لا يمكننا ان نسبر غور «المصارعة مع الله» الا ان هذه «المصارعة» كانت مصدر عزاء لكثيرين من القديسين على مرّ الأجيال . ان سبيل المُخادع الماكر محفوف بالأشواك والمكاره . فقد استنفد يعقوب كل حيلة في المكر والدهاء فأُسقط في يده . فلم يبق امامه سوى أن يلتجىء

electronic file created by cafis.org

الى الله في وحدة لا تعرف الوحشة . وفي مجاهدته في الصلاة استنفد قواه الطبيعية . فما لم ينله بقواه ، ناله بضعفه . ومع انه لم يستطع ان يعرف اسم الله الذي جاهد معه ، الا انه نال بركة منه (تكوين ٣٢:٢٦—٢٩)

و بعد مضي قرون على هذا الحادث ، ألقى هوشع النبي نوراً ساطعاً عليه، فقال : «بقوته جاهد مع الله . جاهد مع الملاك وغلب . بكى واسترحمه . وجده في بيت ايل وهناك تكلم معنا» (هوشع ١٢:٤). ثم استخلص من هذا الحادث درساً جليلاً بقوله : «وأنت فارجع الى الهك . احفظ الرحمة والحق وانتظر الهك دائماً» (هوشع ١٢:٦) . واليك شرح جون وسلي لهذا الحادث :

«هلم اليَّ يا أيها السائح المجهول
يا من أنا ممسك به وان كنت لا أراه
لقد هجرتُ الأهل والأصدقاء
وصرت وحيداً معك
وقد عولت على أن أقضي الليل في حضرتك
لأتصارع معك حتى مطلع الفجر
أَلِن قناتك نحوي لأني ضعيف
ولكنني بالرغم من يأسي بنفسي واثق بك
قل كلمة لقلبي ، إنْ بالكلام أو بالبركات
واسمح لصلاتي ان تستميلك نحوي
تكلم والا فاني لا أطلقك
واخبرني ما اذا كانت «المحبة» هي اسمك

electronic file created by cafis.org

اننا نرى نموذجاً آخر للصلاة المجاهدة ، في صلاة موسى لأجل شعب اسرائيل المتمرد (عدد ١٤:١٧ — ٢٤) . في هذه الصلاة يتجلى امامنا موسى مضحياً بنفسه لأجل شعب الله ، ومتناسياً ذاته في سبيل المحافظة على كرامة عهد الله مع شعبه . ولعلنا لا نجد في الكتاب المقدس صلاة تفوق صلاة موسى في الجرأة والاقدام . فاذا أردنا أن نلمس ذروة هذه الصلاة ، وجب علينا أن ندرس بامعان القرينة المحيطة بها :

« فالآن لتعظم قدرة سيدي كما تكلمتَ قائلاً : الرب طويل الروح كثير الاحسان . يغفر الذنب والسيئة لكنه لا يُبرىء بل يجعل ذنب الآباء على الأبناء الى الجيل الثالث والرابع . اصفح عن ذنب هذا الشعب كعظمة نعمتك وكما غفرت لهذا الشعب من مصر الى ههنا»

لقد كان موسى عظيماً في زعامته للامة الاسرائيلية ، لكنه كان في صلاته لأجلهم أعظم . وان صلاةً على مثال صلاته لا بد أن تجاب . واليك جواب الله العاجل : «فقال الرب قد صفحت حسب قولك» . فيا لها من اجابةٍ سخية مصحوبة بوعدٍ دائم لكل الجنس البشري

ولنتقدم الآن الى دراسة صلاة اليشع في دوثان (٢ ملوك ٦:١٧) . فهي أيضاً صلاة عجيبة ، ووجه عجبها في ملابساتها وفي اقتضابها . لما انزعج غلام اليشع من جيوش بنهدد ، فزع الى سيده قائلاً : « آه يا سيدي كيف نعمل ؟» فكان جواب اليشع له : «لا تخف لان الذين معنا أكثر من الذين معهم» وطلب الى الرب «أن يفتح عيني الغلام فيبصر . ففتح الرب عيني الغلام فأبصر واذا الجبل مملوء خيلاً ومركبات نار حول اليشع» . وما أكثر الاوقات

electronic file created by cafis.org

التي فيها رفع القديسون صلوات مثل هذه عند ما أحدقت بهم الاخطار في مدلهمّ الاوقات التي اكتنفتهم فيها الاعادي . لكن الله عند ما يفتح بصائرنا نستطيع أن نرى ما لا يُرى وأن نسمع ما لا يقوى غيرنا على سمعه ، فنمسك بالحق الازلي الخالد . فما أحوجنا كلنا الى طرد الغيوم والسحب التي تقوم حائلاً بيننا وبين العالم الروحي الغير المنظور. «لان التي تُرَى وقتية وأما التي لا ترى فأبدية» . فلا تغرب عن بالنا هذه الحقيقة :

«ان ربوات الخلائق السماوية تتمشى على الارض
محدقة بنا في يقظتنا وفي منامنا ونحن لا نرى، ولا ندري كيف»

كثيراً ما حدثنا مخلصنا يسوع المسيح عن الملائكة ، وقرر للتلاميذ ان جمهور اجنادهم تحت امرته وسلطانه حتى في بستان جثسيماني

واليك مثالاً آخر لصلاة الشدة، نلقاه في صرخة آسا التي انبعثت من قلبه الى الله عند ما لمح قوات جنود الكوشيين (الاحباش) مهاجمة اسرائيل (٢ أيام ١٤: ١١) . فاذ كان آسا مطمئناً واثقاً بان الله قادر ان يعطي نصرة للاقلية على الاكثرية ليعود المجد اليه وحده، دعا آسا الرب الهه وقال ايها الرب ليس فرقاً عندك ان تساعد الكثيرين ومن ليس لهم قوة فساعدنا ايها الرب الهنا لاننا عليك اتكلنا وباسمك قدمنا على هذا الجيش . ايها الرب انت الهنا . لا يقوى عليك انسان» . ولما خلفه يهوشافاط اقتفى أثره في الصلاة قبل الحرب التي اشهرها عليه رجال موآب ، وبنو عمون « فجعل وجهه ليطلب الرب ونادى بصوم في كل يهوذا ليسألوا الرب . فوقف يهوشافاط في جماعة يهوذا واورشليم في بيت الرب » . ورفع صلاته الشهيرة . . . « وكان كل يهوذا

electronic file created by cafis.org

واقفين امام الرب مع اطفالهم ونسائهم و بنيهم » (٢ أي ٢٠:٥ — ١٣) فمع ان قديسي العهد القديم كانوا عائشين في ضوء السَحَر فلم يدركهم نور الشمس ، لكنهم حذقوا فنّ الصلاة «فامسكوا بالله» بعقولهم وقلوبهم ، وارادتهم . فاستطاعوا بقوة صلاتهم « ان يخضعوا ممالك و يصنعوا براً و ينالوا مواعيد »

طوبى لمن يوهب بصيرة روحية
يميز بها ان الله موجود بقربه في وقت لا يراه فيه سواه
فلا تفشل يا رجل الله بل تحقق من هو الله
وأنت في اظلم ساعات الحروب تستطيع ان تظفر بالظفر

ان هذه الكلمات التي سطرتها شاعرية فريدريك فابر ، تحسب خير تفسير لصلاة نحميا التي رفعها الى الله في اظلم ساعات حياته (١:٥ — ١١) فقد كان نحميا وقتئذ ساقياً في بلاط ملك ارضي ،لكنه كان في الوقت نفسه سفيراً لدى بلاط السماء . ولفرط حزنه على خراب اورشليم ،وبؤس الشعب اليهودي الطريد ، رفع صلاته الجديرة بكل اعتبار . فبعد ان التجأ الى امانة عهد الله وتذلل أمام الله عن خطاياه وخطايا شعبه ، ذكّر الله بعهد مراحمه الذي لا ينفصم عراه ، وختم ضراعته بهذا الطلب : « أعط النجاح اليوم لعبدك وامنحه رحمة امام هذا الرجل» . ومع ان ذلك الرجل كان طاغية شرقياً ، الا ان نحميا قد انتصر عليه بقوة الصلاة ، فقام من صلاته جباراً صابراً ظافراً مثابراً ، لا تلين له قناة . فما أحوجنا اليوم الى سياسيين من هذا الطراز يكونون خير بنائين للمجتمع ، بصيرورتهم أولاً رجال صلاة

electronic file created by cafis.org

لقد بكى مخلصنا على أورشليم . ولم يستحِ بولس بدموعه . واذا كانت الصلاة الحقة تقوم بسكب الدمع امام الله ، فقد كان ارميا بحق رجل صلاة :

«مضى الصيف وانتهى الحصاد ونحن لم نخلص . . . أليس بَلَسان في جلعاد أم ليس هناك طبيب....يا ليت رأسي ماء وعينيَّ ينبوع دموع. فأبكي نهاراً وليلاً قتلى بنت شعبي» (ارميا ٨:٢٠ و٢٢ و٩:١)

فلا عجب اذا كان ارميا قد شُبِّه بـ « تمثال من البرونز يذوب فيسيل دمعاً» . فقد «التقت فيه قوة الرجولة بحنان الأمومة» . كان رجل أوجاع ومختبر الحزن. عاش عيشة موحشة وتحمَّل آثام شعبه. فهو في حياته ودموعه رمز للمسيح،اذ قرَن نصيبه بنصيب البقية الباقية من منفيي اسرائيل.والسفران اللذان يحملان اسمه يفيضان بروح التضرّعات لاجل الآخرين . أحياناً تجد صلاته غاية في الجرأة والاقدام ، كما في قوله : «قد أقنعتني يا رب فاقتنعت وألححت عليَّ فغلبت . صرت للضحك كل النهار» (ارميا ٢٠:٧) . ان في مراثي ارميا كنوزاً روحية ثمينة ينتفع بها كل من يريد أن يغني نفسه في فن الصلاة . وقد لا نعثر في الكتب المقدَّسة على شيء يماثلها في الطلبات الملحَّة الحارة ، والعبارات القوية الفعَّالة ، والحجج القوية الدامغة . فمع انه يقول في مستهل تضرعاته : «انظر يا رب فاني في ضيق . أحشائي غلت . ارتد قلبي الى باطني» ... الا انه يقول قبل ختامها : «أردّد هذا في قلبي. من أجل ذلك أرجو . انه من احسانات الرب اننا لم نفنَ . لان مراحمه لا تزول . هي جديدة في كل صباح . كثيرة أمانتك»

electronic file created by cafis.org

والآن نختتم هذه التأمُّلات بالاشارة الى أطول صلاة فاه بها حبقوق وهي تفيض شاعرية وشعوراً. فمع ان حياته محاطة بشيء من الابهام،ومع ان كتابه قصير لا يعدو ثلاثة فصول، الا انه يُستهلّ ويُختتم بالصلاة — وهي صلاة قوية حية،عند ما اطلع عليها راسكن قال: «وددتُ من أعماق قلبي لو أمكنني التعرُّف بحبقُّوق»

ان الفصل الاخير من سفر حبقوق هو صلاة واحدة مستمرة في طلب النهضة: «يا رب عملك في وسط السنين أحيه. في الغضب اذكر الرحمة». فهذا النموذج الحيَّ في الصلاة يبدأ بتمجيد الله في الخلق والفداء، و يستمر في طلب معونته تعالى لاسعاف اسرائيل وتخليصه من أيدي أعدائه... «انك ركبت خيلك. مركباتك مركبات الخلاص». وقبيل ختامه يفيض بالتذلل والاتضاع: «سمعت فارتعدت أحشائي. من الصوت رجفت شفتاي». ثم يختتم بنشيد الظفر والفرح: «فمع انه لا يزهر التين ولا يكون حمل في الكروم يكذب عمل الزيتونة والحقول لا تصنع طعاماً. ينقطع الغنم من الحظيرة ولا بقر في المذاود. فاني أبتهج بالرب وأفرح باله خلاصي»

electronic file created by cafis.org

الفصل العاشر

صلوات بولس

اذا استثنينا سفر المزامير، لا نجد في الكتاب المقدس، جزءًا عامراً بغنى التعبّد، وعمق السجود والابتهال، وفيض الشكر، مثل رسائل بولس الرسول. فالحمدلة والبركة هما أظهر مميزات رسائل بولس. عن غير قصد منه، تنمّ رسائله عن غنى حياته الروحية بلغة تعبُّدية، خشوعية، تسمو بالنفس الى محضر الله

و بغير تعمُّد رسم بولس في رسائله صورة لنفسه في مراحلها المختلفة — من اجتيازها ظلام الليل الدامس، الى بلوغها نور النهار. ومن مبارحتها سجن الخطية الى تمتعها بحرية مجد أولاد الله. وقد عبّر عن كل هذا بتنهدات عميقة، وتضرُّعات قوية، تفيض بها رسائله

قال الدكتور ألكساندر هويت:

«لقد أجاد بولس كل الاجادة في صلواته المدوَّنة في رسائله، فتجلى لنا منطقياً قديراً، ولاهوتياً ضليعاً، وقدّيساً تقياً. فبعد ان سما بولس بالمكتوب اليهم الى أقصى حد يستطيعون ان يرقوا اليه، تركهم وحلّق فوقهم الى ذرى الافلاك في صلواته. فكان هو في السماء الثالثة، وكانوا هم كأنهم في الوادي!!»

كان بولس «حياً ومتحركاً وموجوداً» في جوّ الصلاة الاعلى. لم يحاول ان يحاج قارئيه عن ضرورة الصلاة، لانه كان مؤمناً بالله الحيّ الذي يسوس البشر و يدبر شئونهم بحكمته السامية، و يديرها بيده القادرة. وقد تلقى من

electronic file created by cafis.org

الله اعلاناً مباشراً عن ارادته تعالى من جهته (غلاطية ١:١٢ و٢:٢). ونال من الله اجابات على صلواته: «لأنه وقف بي في هذه الليلة ملاك الاله الذي أنا له والذي أعبده. قائلاً لا تخف يا بولس. ينبغي لك أن تقف امام قيصر. وهوذا قد وهبك الله جميع المسافرين معك» (اعمال ٢٧:٢٣ و ٢٤). فما أجل هذا اليقين الذي حصل عليه بولس! فلا عجب اذا أردف ذلك بقوله: «لذلك سُرُّوا أيها الرجال لأني أومن بالله انه يكون هكذا كما قيل لي» (أعمال ٢٧: ٢٥). ولا غرو اذا كانت عقيدة بولس في الصلاة هي الصخر القوي الذي تتحطَّم عليه اعتراضات «الفلسفات» العصرية والسفسطات الحديثة. فما من أحد يتصفح تاريخ حياة بولس، أو يدرس صلواته بامعان من غير ان يتيقن ان بولس كان على الدوام شاعراً شعوراً يقينياً بما وراء الطبيعة، وانه كان على اتصال وثيق بالغير المنظور، وعائشاً في محضر الله وان يكن متمشياً على الأرض، شديد الثقة باقتدار الصلاة في فعلها في كل حال. أتراه يكتب الى المؤمنين قائلاً: «صلوا بلا انقطاع. اشكروا في كل حين على كل شيء؟» انه بقوله هذا يترجم عن حياته هو، وهو لا يدري. ويُخيَّل الينا ان حياة بولس الروحية مركزة في هذه العبارة الموجزة التي كتبت عنه في غرّة حياته الجديدة: «هوذا يصلّي» (أعمال ٩:١١). فالحياة المسيحية الحقة هي حياة الصلاة. لقد طلب بولس لأجل نفسه، وصلى لأجل الآخرين، وتضرع لأجل الكنائس التي أسسها، وابتهل لاجل أسباط اسرائيل، وتوسل لاجل كل العشيرة البشرية. بامكاننا ان نتحقق قوة صلاته لاجل الافراد، من مراجعة القائمة الطويلة المسجلة فيها أسماء الافراد الذين ذكرهم بأسمائهم

electronic file created by cafis.org

في رسالته الى روما وسائر رسائله . ففي رسالته الثانيـة الى تيموثاوس كتب هذه العبارة : « اني أشكر الله الذي أعبده من أجدادي بضمير طاهر كما أذكرك بلا انقطاع في طلباتي ليـلاً ونهاراً مشتاقاً أن أراك ذاكراً دموعك لكي امتلئ فرحاً». ومراراً طلب في رسائله الى الاخوة المؤمنين أن «يصلوا لاجله» (١ تس ٥:٢٥). وفي كثير من هذه الرسائل يذكر حاجاته الخاصة المُـلحة—منها:«ان يُنقَـذ من الذين هم غير مؤمنين في اليهودية»،«ولكي تكون خدمته لاجل أورشليم مقبولة عند القديسين»، ولكي «يفتح الرب له باباً للكلام ليتكلم بسرِّ المسيح كي يظهره كما يجب أن يتكلم»،ولكي «تجري كلمة الرب وتتمجد»، ولكي «يُنقَـذ من الناس الاردياء الاشرار» ولكي « يوهب لهم بصـلواتهم » (رومية ١٥:٣٠ — ٣٢ وكولوسي ٤:٣ و٢تس ٣:١ وفليمون ٢٢)

كان بولس وطيد الاعتقاد بأن الله وأبا ربنا يسوع المسيح هو خير عضد عند ما يشتد الخطب.وهو يرثي لضعفاتنا لان التجسد قرَّب الله من الانسان وكشف له عن قلب محبته

يا من الى حضرتك ترتفع الصلوات الحارة وتضرعات الاسترحام
فتسمع الصلوات وتستجيب التضرُّعات
اكشف لنا عن قلب حبك واسمعنا نبضاته من خلال خليقتك
وابتسم لنا ابتسامة الانسان لاخيه الانسان

واذا ما حاولنا ان نحلِل صلوات بولس الرسول ونعدِد نواحيها،ونصف مراميها،اعيتنا الحيلة لفرط تنُّوعها وغزارة مادتها. ولقد كتب مستر پوپ من

electronic file created by cafis.org

منشستر،في احدى المجلات عام سنة١٨٧٥ أوراقاً متناثرة عن «صلوات بولس» فحللها الى صرخات استغاثة—مركزة في كلمة أو عبارة، وتضرعات، وبركات، وتشكرات . ثم استخلص منها ثلاثة عشر طلباً ضمنها فيما يأتي :

صلاة لاجل ازدياد المحبة (١ تس ٣:١٢)
صلاة لاجل التقديس التام (١ تس ٥: ٢و٢٤)
صلاة لاجل اتمام مسرة الله (٢تس ١٠:١١و١٢)
صلاة لاجل التعزية الابدية (٢ تس ٢:١٦و١٧)
صلاة لاجل المحبة والصبر (٢ تس ٣:١٥)
صلاة لاجل الكمال المشترك (٢ كو ١٣:٧ — ٩)
صلاة لاجل وحدانية المؤمنين، (رو ١٥:٥و٦)
صلاة لاجل الرجاء (رومية ١٥:١٣)
صلاة لاج معرفة ارادة الله (كولو ١:٩ — ١٤)
صلاة لاجل يقينية المعرفة (كو٢:١—٣)
صلاة لاجل مجد ميراث القديسين (افسس ١:١٥ — ٢١)
صلاة لاجل حلول الله في قلب المؤمنين (افسس٣:١٤ — ٢١)
صلاة لاجل صيانة المؤمنين الى يوم المسيح (فيلبي١:٩ — ١١)

من هذه : تسع صلوات مختصرة جداً ، والخمس الاخيرة مستفيضة . وكلها طلبات واضحة حاسمة وتشفعات لاجل نعم وهبات روحية . ومن المهم ان نلاحظ ان خمساً من هذه الصلوات قد دُونت في الرسالتين الاوليين اللتين كتبهما بولس الرسول — الى المؤمنين في تسالونيكي

electronic file created by cafis.org

أضف الى هذه الصلوات تلك المقدمات التي يستهل بها بولس رسائله ، وهي وان تكن في صيغتها تمنيات لاجل البشر ، الا انها في جوهرها طلبات مرفوعة الى الله : « نعمة ورحمة وسلام من الله أبينا والمسيح يسوع ربنا» (١ تيموثاوس ١:٢) . «نعمة لكم وسلام من الله أبينا والرب يسوع المسيح» (كولوسي ١:٢) ، كذلك الأمر في معظم الرسائل : تارةً في البدء وطوراً في الختام . فضلاً عن ذلك نلاحظ البركة الرسولية في ثلاث صيغ — مع شيء من التباين : « نعمة ربنا يسوع المسيح معكم» — هذه هي الصيغة الاولى والغالبة وكثيراً ما نراها مقتضبة في قوله : « النعمة معكم » ، أو مسهبة في تلك الصيغة التاريخية الشائعة «نعمة ربنا يسوع المسيح ، ومحبة الله ، وشركة الروح القدس مع جميعكم . آمين » (٢ كورنثوس ١٣:١٤)

ومما يسترعي التفاتنا في هذه التحيات والبركات ، ان « النعمة » هي الكلمة السائدة التي لها المكانة الاولى فيها . فكل شيء في نظر بولس ، هو وليد النعمة : «لانكم بالنعمة أنتم مخلصون» ، «...نعمة ربنا يسوع المسيح انه من أجلنا افتقر وهو غني لكي نستغني نحن بفقره » (٢ كو ٨:٩) . فلقد أحب الرسول هذه الكلمة ، فكانت هي العلامة المميزة له في كل رسائله. فالله في نظر بولس هو «اله كل نعمة» . و بولس في نظر نفسه هو « أول الخطاة الذي لم يستحق ان يدعى رسولاً إلا بالنعمة» .

وقبل دراسة صلوات بولس ، نريد أن نتأمل اولاً في تشكراته ومن الملاحظ أنه يستهل شكرانه عادة بعبارتين — اولاهما : « مبارك الله » ، والثانية «اني اشكر الله» . فهو يشكر على نجاح الانجيل ، وطاعة القديسين

electronic file created by cafis.org

ونموّهم في النعمة ، ومواهب الروح القدس ، وشركة القديسين ، وتعزية المتضايقين، وكل عاطفة مسيحية، وشركة أخوية . فقد كان قلبه على الدوام مفعماً بالشكر لله على آلائه، وعلى كل عطاياه التي توّجها بعطيته التي لا يعبَّر عنها — المسيح !

فمتى أردنا أن نتعلَّم فنّ الشكر ، لنسكب قلوبنا امام الله مقرّين بفضله السامي علينا ، حامدين له عنايته بنا في ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا ، وجب علينا أن ندرس صلوات الشكر التي رفعها بولس الى الله :

«مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح أبو الرأفة واله كل تعزية الذي يعزينا في كل ضيقتنا حتى نستطيع أن نعزي الذين هم في كل ضيقة بالتعزية التي نتعزى نحن بها من الله» (٢ كو ١:٣ و ٤)

واذ نسرّح الطرف في رسائل بولس يتجلى لنا بوضوح ان أعظم العقائد أهمية قد أُفرِغت ، وصيغت ، على نوعٍ ما ، في شكل صلاة . وان معظم الصلوات التي نبحثها الآن انما هي طلبات افرغها الرسول من قلبه ليكتنف بها السماء يومياً. وهي سكيب أشواقه العميقة،معلّمة الكنيسة في كل عصورها عن الصلاة التشفعية،ما يمكن أن تكون عليه، وما يجب أن تكونه.والصلوات الخمس المسجلة في رسالتي تسالونيكي، والتي سبقت الاشارة اليها ، مطبوعة بطابع الاختصار في التعبير وعمق المعاني . فالصلاة الاولى منصبَّة على طلب ازدياد المحبة . ثم أعقبتها صلاة مركَّزة في طلب التقديس التام ، بكلمات تسترعي الالتفات :

« والرب ينميكم ويزيدكم في المحبة بعضكم لبعض وللجميع كما نحن أيضاً

electronic file created by cafis.org

لكم . لكي يثبت قلوبكم بلا لوم في القداسة امام الله أبينا في مجيء ربنا يسوع المسيح مع جميع قديسيه . . . واله السلام نفسه يقدسكم بالتمام ولتُحفظ روحكم ونفسكم وجسدكم كاملة بلا لوم عند مجيء ربنا يسوع المسيح» (١ تس ٣:١٢ و١٣ و٥:٢٢ و٢٣)

تعتبر هذه الصلاة فريدة في بابها لاعتبارات كثيرة . فعباراتها مركّزة تذكرنا بصلاة المسيح الشفاعية المسجلة في انجيل يوحنا (يوحنا ص ١٧) ، وهي موجهة الى اله السلام ، الذي هو صانع سلامنا ، ونبع قداستنا . وهي تشتمل على عقيدة الثالوث — لا كمجرد عقيدة بل كحقيقة اختبارية ، وهي مختتمة بوعد مُطلق ، مستديم ، مؤسس على أمانة الله

أما الصلوات الثلاث الأخرى المختصرة ،المتضمنة في رسالة بولس الرسول الثانية الى تسالونيكي ، فقد سبقت الاشارة اليها . وفي ختام الرسالة الثانية الى كورنثوس ، نجدما نسميه « عناصر متناثرة لصلاة رفعها بولس لأجل إصلاح حياة المكتوب اليهم»:«وأصلي الى الله انكم لا تعملون شيئاً ردياً ليس لكي نظهر نحن مزكين بل لكي تصنعوا أنتم حسناً ونكون نحن كأننا مرفوضون... لأننا نفرح حينما نكون نحن ضعفاء وأنتم أقوياء» (٢ كو ١٣:٧ و ٩) . ومع ان قرينة الكلام هنا من الصعوبة بمكان ، الا ان محبة بولس المضحية ظاهرة للعيان بأجلى بيان ، لان سر النزاع كان منصباً على عدم اعتبار أهل كورنثوس لسلطة رسوليته . واذ نمرّ مرّ الكرام بالصلوات المختصرة المختصة بالاتحاد والرجاء ، المدوَّنة في رسالة رومية (١٥:٥ و ٦ و١٣) نرانا وجهاً لوجه امام تلك الصلاة الجامعة الشاملة المتضمنة في كولوسي ١:٩— ١٤ وهي مختصة

electronic file created by cafis.org

بمعرفة ارادة الله . فقد طلب بولس في هذه الصلاة ، لأجل حديثي الايمان من أهل كولوسي «ان يمتلئوا من معرفة مشيئة الله . في كل حكمة وفهم روحي ليسلكوا كما يحق للرب في كل رضى مثمرين في كل عمل صالح ، ونامين في معرفة الله متقوين بكل قوة بحسب قدرة مجده لكل صبر وطول أناة بفرح» ثم ختم هذه الصلاة بحمدلة مثلثة للآب والابن «الذي لنا فيه الفداء بدمه غفران الخطايا» . كل كلمة في هذه العبارات المركّزة زاخرة بالمعاني الغزيرة والأفكار السامية الجليلة، وهي بلا جدال حجج دامغة مؤيدة لقوة الرسول الملهمة . فما أعظ الفرق بين هذه الصلاة و بين صلواتنا نحن ، التي كثيراً ما نحشوها بالألفاظ الجوفاء محاولين ان نستر بها فقر المعاني . أما صلاة الرسول فهي صراع قوي عنيف ضدّ «قوات الظلام» ،والنصر فيها حليف المؤمنين اذا هم حملوا أسلحة النور

وهنالك صلاة مشابهة لهذه — وان تكن أقل منها جلاء — وردت في نفس هذه الرسالة (كولوسي ١:٢ — ٤)،حيث طلب الرسول لاجل المؤمنين في لاودكية والذين لم يروا وجهه بعد «يقيناً فعالاً لمعرفة سر الله الآب والمسيح» وهي صلاة فاضت بها نفسه، «وأنّات القلب تبعثها. وفي رسالته الى أفسس نجد طلبتين مستفيضتين للرسول . أولاهما (أفسس ١:١٥ — ٢١) تتناول مجد ميراث القديسين الذي لا يعرف قدره الا أولئك الذين استنيرت عيون أذهانهم فسلكوا في قوة حياة الرب المقام . وهي — كغيرها من صلوات الرسول — موجهة الى الثالوث الأقدس — الآب ، والرب يسوع المسيح ، وروح الحكمة والاعلان . وكلٌّ من هذه الثلاثة الاقانيم قد ذكر مستقلاً متميزاً عن الآخر.

electronic file created by cafis.org

والصلاة مكتوبة بلغة القلب والاختبار . وهي متوجّة في ختامها بعبارة جليلة عن الفادي المقام ، قد انتقى الرسول ألفاظها من منجم اختباره السابق عند تجديده ، حين ظهر له الرب في طريق دمشق «مقاماً من الأموات جالساً عن يمين الله في السماويات . فوق كل رياسة وسلطان وقوة وسيادة وكل اسم يسمى ليس في هذا الدهر فقط بل في المستقبل أيضاً» . فصلاة الرسول اذاً مفعمة بالتمجيد لانه لم ينس لحظة «مجد ذلك النور» الذي رآه «في الطريق» فسقط على الأرض من هول ما رأى وسمع ، وهناك تسلّم مقاليد رسالته

أما الصلاة الثانية المدوّنة في رسالة أفسس، فهي بالنسبة لكل صلواته، بمثابة قدس الأقداس للهيكل. فهي في عمقها، وسعتها، وجلالها، وغناها، وسموها ، تفوق كل كتابات الرسول وتسمو فوقها : «بسبب هذا أحني ركبتيّ لدى أبي ربنا يسوع المسيح الذي منه تسمى كل عشيرة في السموات وعلى الأرض» ثم أردف هذه الديباجة بخمس طلبات، وختمها بحمدلة جليلة فائقة. وقد يُتاح لنا ان نتعرف شيئاً من المعاني السامية التي تنطوي عليها احدى الطلبات المتضمنة فيها ، متى تأملنا في هذا المكتوب الذي أرسله الأسقف ادوارد بكرستيث من اليابان وهو في الثامنة والعشرين من عمره الى أخيه الأصغر وقد كان وقتئذ في دلهي . قال فيه :

«ان نتائج جهود المرسليات ، تتمشى مع درجة روحانية العمّال في هذه لمرسليات . فزِدْ اذاً النار المتقدة في قلبك اضطراماً ، وضاعف تمسكك بالحقائق العلوية السامية ، وقوِّ شعورك اليومي بالتمتع بحضرة الله ، واسمح للمسيح بان يحلّ في قلبك بالايمان . واسحق الاثرة والانانية والخطية ، عندئذٍ

electronic file created by cafis.org

يتمكن الله من ان ينجز بواسطة عاملٍ أو عاملين أو ثلاثة عمال متوشحين بهذه المؤهلات في وقت قصير، أضعاف ما ينجزه في مدة طويلة بخمسين عامل من الطراز العادي المألوف»

كذلك كانت حياة بولس المفعمة بروح التعبد والصلاة، عاملاً مهماً في اعداد مسيحيين من الطراز الأول في القرن الأول

وفي ختام هذه الصلوات، نذكر صلاةً أخرى لبولس، ذُكرت تفصيلاً في رسالته الى فيلبي (فيلبي ١:٩—١١). في هذه الصلاة تضرَّع بولس لأجل المكتوب اليهم كي «تزداد محبتهم أيضاً أكثر فأكثر في المعرفة وفي كل فهم حتى يميزوا الأمور المتخالفة لكي يكونوا مخلصين وبلا عثرة الى يوم المسيح». ان «يوم المسيح» هو نقطة الارتكاز في هذه الصلاة. «فيوم المسيح» هو فجر الأبدية، ورجاء المفديين، وتاج التاريخ. حسناً قال أحدهم: ان بولس الرسول كان يتكلم بلغة «هذا اليوم» و«ذلك اليوم»، ولعله لم يعرف مميزاً آخر للزمن لأنه انما كان عائشاً للابدية وفي الابدية

والمشكلة التي تواجهنا، ونحن ندرس صلوات بولس، هي صلاته غير المستجابة المتعلقة بشوكته التي أُعطيها في الجسد. ان مشكلة الصلاة الغير المستجابة، تأتي في صُوَر ثلاث. أحياناً يكون عصياننا سبباً في عدم استجابة صلواتنا — كما في صلاة شاول في جبعون. وأحياناً أُخرى تُعاق اجابة صلواتنا، حتى تكتسب صلواتنا قوة بالمثابرة واللجاجة — كما في صلاة ايليا على جبل الكرمل. ومراراً أخرى يستجيبنا الله على طريقته هو، لا على طريقتنا نحن. فيجيب داعي ارادته الصالحة، ويغضي عن ارادتنا الخاطئة. هذه هي الحال في

electronic file created by cafis.org

عدم استجابة صلاة بولس، فلم ترفع عنه الشوكة التي أُعطيها في الجسد: «من جهة هـذا تضرَّعت الى الرب ثلاث مرات ان يفارقني. فقـال لي تكفيك نعمتي لأن قوَّتي في الضعف تكمل»

في الاصحاح الحادي عشر من هـذه الرسالة عينها، سمعنا بولس مدافعاً عن رسوليته، ثم رأيناه محلّقاً في سماء الأعالي حتى بلغ السماء الثالثة، ولكنه من ذلك العلوّ الشاهق، هبط الى وادي الاتضاع والمسكنة، فحدثنا عن «الشوكة التي أُعطيها في الجسد — ملاك الشيطان ليلطمه لئلا يرتفع». وليس مما يعنينا الآن أن نبحث في ماهيـة الشوكة التي أعطيها بولس، سواء أكانت علةً جسدية أم مثبطات روحية، أم تجارب جسدانية، أم صرعاً، أم حمى ملاريا، أم رمداً خبيثاً. فلكلٍّ من هذه الأراء، أنصار أقوياء. ولكن ليس لأحد أن يجزم بصورة قاطعة عن حقيقة ماهية هـذه الشوكة التي أصابت الرسول العظيم. ومهما يكن من أمرها، فانها كانت له بمثابة جثسيماني — جسـدياً، وعقلياً، وروحياً. فقـد عرفنـا الرسول ان الكبرياء كانت عدوه الروحيّ اللدود، وان الألم كان له خير حليف وشريك. فلما صلى في المرة الثالثة، أجابه الرب بالقول «تكفيك نعمتي لأن قوَّتي في الضعف تُكمل». الآن، والآن فقط، استطاع الرسول أن يقول: «فبكل سرور أفتخر بالحري في ضعفاتي.... لأجل المسيح لأني حينما أنا ضعيف فحينئذ أنا قويّ»

هنا صبر الصلاة التي وان تكن حسب الظاهر غير مستجابة، الا انها في الواقع مجابة أحسن إجابة. هنا نصرة الايمان:

«الى الآن لم يأت الجواب»؟ لكن الايمان لا يسكت عن عدم الاجابة

electronic file created by cafis.org

لان قدميه راسختان على صخر الدهور
وفي وسط العاصفة الهوجاء يظل ثابتاً غير متزعزع
فلا تلين قناته امام قوة الرعد القاصف
لانه يعلم علم اليقين ان القدير قد سمع الصلاة
فلا غرو اذا صرخ صرخة الواثق : لا بد من أن يأتي الجواب
بصورة ما ، وفي وقت ما»

حسناً قال روبرت سبير بصدد شوكة بولس : «لقد حدثنا بولس في صمته أكثر مما رغب أو أراد . لأن صمته نمَّ عن روحه الطاهرة ، الجريئة الظافرة . فلما أدرك ان في شوكته درساً وتدريباً له ، قام الى عمله بطلاً كما عهدناه» . لقد تعلم بولس لا أن يصلي على الدوام وكفى ، بل أن يكون شاكراً في كل حال ، لأن فرح الرب هو قوته»

فاذ كنتَ تشعر بان صلاتك حمل عليك ، وان شوكتك التي في الجسد عبء عليك ، بدلاً من أن تكون بركة ، واذا رغبت في أن تتعلم سر الشركة مع الله ، وأن يكون قلبك ملتهباً بحبه لمجده ، اذاً فاعكف على قراءة رسائل بولس ودراسة صلواته وابتهالاته وتشكراته . لأن الرجوع الى بولس في هذا الباب انما هو رجوع الى المسيح ، عن طريق آخر ، ومن ثم تتقدم مع المسيح في مدرسة الصلاة

electronic file created by cafis.org

الفصل الحادي عشر

« الصلاة الربانية »

منذ تسعة عشر قرناً ، عند سفح أحد الجبال ، علّم المسيح تلاميذه ، لأول مرة ، تلك الصلاة التي تفوق في جمالها وكمالها ، كل صلاة الشهيرة بـ « الصلاة الربانية » . ولعلها سُميت بهذا الاسم ، لان الرب سلمها لكنيسته ، ولانها خير كنز لتعاليمه ، وأجمل تعبير لحقيقة روحه . وفي الواقع ، ليست هذه صلاة ربنا بالذات ، بل هي الصلاة التي رسمها وقصدها لتلاميذه . فهو لم يعرف خطية ، لذلك لم تكن به حاجة الى طلب الغفران . وليس في الكتاب ما يدلنا على ان المسيح صلى هكذا — وان يكن قد صلى في جثسيماني لكي تتمّ ارادة الآب . وكل ما نعلمه عن سبب رسم هذه الصلاة ، هو ان التلاميذ طلبوا الى فادينا المجيد ان يعلمهم كيف يصلون : « يا رب علمنا ان نصلي » فأعطاهم هذه الصلاة تلبية لهذا الطلب : فقال « متى صليتم فقولوا أبانا الذي في السموات . . »

ولسنا نعرف فصلاً من الكتاب شغل حيّزا في كتب التفسير والأدب المسيحي ، مثل الحيز الذي احتلّته هذه الصلاة . لما كان جون نوكس على فراش الموت سنة ١٥٧٢ ، ردد الصلاة الربانية مردفاً كل طلبة بعبارة توضيحية تفسيرية : « أبانا الذي في السموات . . . ومن يجرؤ على النطق بهذه الكلمات القدسيه الجليلة ؟ ! »

وهل في مقدور أحد ان يضيف شيئاً جديداً الى ما قيل وكُتب عن

electronic file created by cafis.org

هذه الصلاة الجامعة الشاملة ، التي هي بحق صلاة الدهور ؟ لقد كشف دانتي عن بعض خفايا اسرارها في المقطوعة الحادية عشرة من قصيدته : الكوميديا الالهية — المطهر » . و يعتقد بنجال ان رسالة بطرس الرسول الأولى هي كلها تفسير للصلاة الربانية . وقال كرليل : « هي صوت النفس البشرية والطموح القلبي لكل ما هو جليل ومقدس » . وعند ما جرد فرنسيس نفسه من الثياب الموهو بة له من أبيه وأعادها اليه ، قال :

« اسمعوا كلكم وَعُوا . الى هذا اليوم كنت أقول لبيتر و برناردون : « يا أبي » . ولكنني الآن أرغب في ان أخدم الله . لاجل هذا رددت اليه كل ما له عندي من مال وكساء . لانني منذ اليوم لا أريد ان انطق الا بهذه الكلمات : « أبانا الذي في السموات » .

هذه الصلاة تُلمّ بكل اشواق القلب المصلي . وهي تشتمل على الرغبات الروحية التي تجيش في صدور البشر في جميع انحاء المعمورة ، وتحتوي في عبارات سهلة ، كل وعدٍ الهي ، وكل آلام البشر وحاجاتهم ، وكل أماني المسيحيين لاجل غيرهم . هى أقصر ، وأعمق ، وأغنى كل الصلوات التي رفعها البشر . ولا عجب فان الذي رسمها هو المسيح ابن الله ، العليم بقلوب البشر وآلامهم وآمالهم

شبهها بعضهم بحجر من الماس الكريم ذات عدة أوجه تشعُّ منها تعاليم الانجيل وحياة ربنا وصفاته ، وعمل الروح ، وقوة الحياة المفتداة ، وتاريخ

electronic file created by cafis.org

ملكوت الله ونصرته النهائية . هي صلاة بسيطة لكنها طريفة . سهلة جداً فمن الميسور ترديدها . لكنها صعبة جداً ، فمن العسير اجادة فهمها . وديعة في عباراتها ، لكنها متسامية في علوّ مراميها . طبيعية وخارقة للطبيعة في آن واحد . هي بزرة كل صلاة حقيقية وهي الذروة . اذا تلوناها على مهل محاولين ان نسبر غور عباراتها القصيرة ، أعادت الى ذاكرتنا كلمات ديمتري مريكوسكي التي قالها عن الانجيل :

« هو سفر عجيب . لا يمكنك ان تستنفد عمق معانيه وأنت تقرأه . وكلما امعنت في قراءته ، يخيل اليك إما انك لم تفرغ من قراءته ، أو انك نسيت ما قرأت ، أو انك عجزت عن فهم جُلّ ما قرأت . وكلما أعدت الكرة في القراءة ، عاودك هذا التصوُّر مرات بلا عدد . مَثلك في هذا ، مثل من يتطلع الى النجوم في قلب ليلة ظلماء ، كلما زاد تمعناً ازداد عدد النجوم في نظره » .

وسنحاول ان ندرس في هذه العجالة ، سؤالين والجواب عنهما ، بشأن هذه الصلاة — اولهما : لِمَن توجَّه هذه الصلاة؟ والثاني : باي روح تُرفع هذه الصلاة ؟

خلافاً لما يقول به «المتعاصرون» و «الانسانيون» ، نؤمن نحن من جانبنا ، ان الصلاة الربانية تفيض بروح المسيح . فلا يمكن ان يتفهمها ويصلي بها الا المسيحي الحقيقي . فاذا تساءلنا : « الى من نصلي » و « بأي روح نصلي » ، وجدنا في هذه الصلاة عينها خير اجابة على هذين السؤالين .

electronic file created by cafis.org

تُقسم الصلاة الربانية ، عادة ، الى ثلاثة أقسام — المقدمة ، والطلبات ، والخاتمة . والطلبات المتضمنة فيها ، ست — ثلاث تتعلق بالله وملكوته ، وثلاث تختص بالانسان وحاجاته . الثلاث الطلبات الاول تكشف عن غنى الله الغير المحدود . والثلاث الطلبات الاخيرة تحدثنا عن فقر الانسان الذي تملأه نعمة الله وحدها .

وقد لاحظ الدكتور ثولوك : « ان القارىء النابه الذي له إلمامة بعقيدة الثالوث ، يستطيع ان يتبين من ترتيب الطلبات في هذه الصلاة ، شيئاً عن عقيدة الثالوث . فالطلبتان الأوليان في شطري هذه الصلاة تشيران الى الله — الخالق ، والحافظ . والطلبتان الثانيتان في هذين الشطرين موجهتان الى الله الفادي ، والطلبتان اللتان بهما تُختتم شطرا الصلاة ، موجهتان الى الله الروح القدس . وقد لا يظهر لنا هذا جلياً لأول وهلة ، ولكن كلما امعنا النظر فيها ودققنا البحث والتحليل ، تبينت لنا هذه الحقيقة بوضوح . فكما يتفرس الانسان في ورقة مالية أمام ضوء ساطع ، فيتبين الرسوم الدقيقة الخفية الحاملة طابع المعمل الذي صنعت فيه ، كذلك عقيدة الثالوث تتجلى لكل متأمل في كثير من فصول العهد القديم ، والعهد الجديد

حقاً ان الصلاة التي علمنا المسيح اياها ، تشبه مرآة ينعكس عليها مجد الله الآب ، والابن ، والروح القدس — ان لم يكن تصريحاً فتلميحاً . كما يظهر من صيغتها وترتيبها :

electronic file created by cafis.org

المقدسة	الطلبات		الخاتمة
أبانا	ليتقدس اسمك	خبزنا كفافنا أعطنا اليوم	لأن لك الملك
الذي	ليأتِ ملكوتك	واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين الينا	والقوة
في السموات	لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الارض	ولا تدخلنا في تجربة لكن نجنا من الشرير	والمجد

«فصلوا أنتم هكذا» — ونحن شاعرون بصلتنا الشخصية بالله أبينا ، والله فادينا ، والله مقدسنا . ففي المقدمة ذُكر الثالوث ضمناً . فالله ازلي ، غير متغير في وجوده وصفاته . لانه هو أبونا الآن كما كان منذ البدء ولا يزال كذلك الى الابد . وابن محبته كان في حضن الآب قبل كون العالم . وروحه كان يرف على وجه الغمر ، وهذا الروح عينه هو وحده الذي يؤهل كل مؤمن لأن يقول : « يا أبا الاب » .

الطلبة الأولى مختصة باسم يهوه المهوب والقدوس في كل صفاته. والطلبة الثانية تتناول ملكوت « مسيا » ابن الله — ملكوت النعمة في القلوب البشرية ، والقوة في العالم الحاضر ، والمجد في العالم العتيد . هذا الملكوت

electronic file created by cafis.org

المثلث مختص بالمسيح . وهو ملكوت ازلي غير محدود في مداه ، ولا تحيطه حدود جغرافية . والطلبة الثالثة منصبة على الارادة التي هي أعمق سر في الشخصية الانسانية : « لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الارض »

« ارادتنا مِلك لنا وان كنا لا ندري كيف

ارادتنا مِلك لنا ، لكننا نجعلها ملكاً لك »

ان تكييف الارادة البشرية المتمردة، وطبعها وفق ارادة الله، من عمل الروح القدس وحده كما يستفاد من الكتاب المقدس . فهو الذي يذكي في قلوبنا شرارة الايمان ، ويطبع ارادتنا طبق فكره ومراد ، ويغلب فينا كل احجام وتردد ، ويضرم في قلوبنا شوقاً لاتمام ارادة الله

والطلبات الثلاث المتضمنة في الشطر الثاني من هذه الصلاة منسَّقة على هذا الترتيب عينه . فالطلبة الاولى موجهة الى الله آب الجنس البشرى ، لان عيون الكل تترجاه وهو يعطيهم طعامهم في حينه . يفتح يديه فيشبع كل حي رضى من غناه . وهو يمنحنا طعامنا اليومي ، وخبزنا كفافنا ، والطلبة الثانية موجَّهة الى ابن الانسان الذي له سلطان على الارض ان يغفر الخطايا . فهو الذي تشفع في المذنبين ، وبكى على الخطاة ، ومات لاجل المذنبين ، وكفر عن خطايا العالم أجمع : « اغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين الينا » « يا أبتاه اغفر لهم لانهم لا يعلمون ماذا يعملون »

أما الطلبة الثالثة والختامية، فهي تتعلق بعمل الروح القدس: « ولا تدخلنا في تجربة لكن نجنا من الشرير » . فالانجيل المقدس يحدثنا عن المسيح قائلاً : « اما يسوع فرجع من الاردن ممتلئاً من الروح القدس . وكان يقتاد بالروح

electronic file created by cafis.org

في البرية». فالروح القدس، والروح الردىء، يتصارعان معاً في ميدان العالم، وفي ساحة قلب الانسان. قد لا يؤمن البعض بوجود الله، وينكر وجود الشيطان. لكن اذا كان المرء مؤمناً بالله فلسنا ندري لماذا لا يعترف بوجود الشيطان. فالكتاب المقدس يعلمنا ذلك. ولقد أجاد مريكوفسكي في قوله:

« من يستطيع في هذه الايام ان يؤمن بما كان المسيح يؤمن به في عصره ؟ ؟ كان المسيح يعتقد بوجود الشياطين. لكننا لسنا نشاطره الآن هذا الاعتقاد » . هذا ما يدعيه خادم بروتستانتي ساذج. بينما اذا استطاع طالب صغير، في يومنا الحاضر، ان ينسب الى المسيح أخطاء في تقدير جوهر الشر والشرير، فمن أدرانا ان نفس هذا الغر الجهول ينسب له أخطاء أخرى في تقدير جوهر الخير، و بالتالي في معرفة الله نبع كل خير وصلاح ؟ وهل من هدم للمسيحية بعد هذا ؟

« طوال المدة التي قضاها المسيح على أرضنا، كان يجاهد و يصارع » ضد الشرير باعتبار كونه ذاتاً حقة متمثلة في الشيطان. ولا شك ان الطلبة الاخيرة : « لكن نجنا من الشرير تشير الى الشيطان على هذا الاعتبار » ونحن نوافق قلبياً على هذا الرأي

فالطلبة السادسة، اذاً، مرفوعة الى الروح القدس، الذي هو وحده القادر ان يعطينا نصرة على التجربة وان يرشدنا الى كل الحق

ومن الملاحظ أيضاً ان « الحمدلة » التي تختتم بها الصهاة الربانية — مثل المقدمة — موجهة الى الثالوث الاقدس : « لان لك الملك » — يا أيها المسيح، والقوة — يا أيها الروح القدس، « والمجد » — يا أيها الآب،

electronic file created by cafis.org

كما كان منذ البدء، وهو الآن، وسيكون الى دهر الدهور. وفي هذا الصدد يقول بولس الرسول : «ومتى أخضع له الكل ، فحينئذ الابن نفسه أيضاً سيخضع للذي أخضع له الكل. كي يكون الله الكل في الكل » (١ كو ١٥.٢٨)

وسواء أقبلنا رأي تولوك أم رفضناه، فمن المحقق ان الصلاة الربانية تعلمنا ان نوجّه صلواتنا الى كل اقنوم في اللاهوت . فعلى الجميع ان يكرموا الابن والروح القدس مثلما يكرمون الآب . ومما لا جدال فيه ، ان المسيحيين الاولين كانوا يرفعون صلواتهم الى كل من أقانيم الثالوث الاقدس

فصلاة استفانوس التي رفعها وقت استشهاده، وُجهت الى يسوع المسيح، وبولس تضرع الى الرب يسوع المسيح ، كي ينقذه من الشوكة التي في الجسد . وصلاة التشفع مرفوعة الى الروح القدس بدليل القول : « والرب » — أي الروح — « يهدي قلوبكم الى محبة الله والى صبر المسيح » . وفي تسبيحة الشكر التاريخية التي تستهل بالقول : « الشكر لك يا الله » ، نلاحظ ان عبادة الآب والابن والروح القدس ، قد اندمجت معاً في عبارة واحدة منسجمة كما في الصلاة الربانية . فالصلاة المسيحية يجب ان تُرفع الى الله ، في المسيح بالروح القدس . ومن مزايا توجيه العبادة الى الثالوث الاقدس ، ان المصلي لا يقع في خطأ المتكلم عن الروح القدس بصيغة التأنيث كما لو كان شيئا لا شخصا . فهو معزينا ، ومرشدنا ، ومنير قلوبنا وسبلنا ، ومعلمنا ، وهو وحده الذي يجعل المسيح حقيقة حية في اختبارنا. من أجمل الترنيمات اللاتينية القديمة ، ترنيمة مرفوعة الى الروح القدس ، مطلعها : « تعال يا ايها الروح الخالق » . وقد كتبت في الغالب بقلم غريغوري الاعظم

electronic file created by cafis.org

(٥٠٤ — ٦٠٤ م) ولعلها خير شرح للطلبة السادسة . فالصلاة الربانية ، اذن هي صلاة مسيحية بكل معنى الكلمة . وفي نظرنا لا يليق تلاوتها في في محافل تجمع اليهود والغير المسيحيين على اعتبار انها عامل مشترك بين جميع الاديان . لان هذا يذهب بشيء من « طلاوة مسيحيتها » . ففي هذه الصلاة لنا قدوم بالمسيح الى الآب في روح واحد عن ثقة. فالقدوم الى الآب بالمسيح في روح واحد. حسناً قال ترنش رئيس الاساقفة ، في احدى مواعظه مخاطباً جماعة من المؤمنين :

« الصلاة هي عمل الله ، الله الروح القدس . هي عمله فيكم ، و بكم . ومع أنكم عاملون معه ، لكنها بالرغم من كل ذلك ، هي عمله وحده»

هذا يأتي بنا الى السؤال الثاني : هو — بأي روح يمكننا ان نرفع صلاة الدهور هذه ؟ والجواب على هذا السؤال مستمد من كلمات الصلاة نفسها . فهي تتطلب منا روحاً بنوية ، وقورة ، وفيّة ، خاضعة ، معتمدة ، تائبة ، متضعة ، واثقة ، ظافرة ، متهللة ، مخلصة :

روحا بنوية : بها نخاطب الله قائلين : «أبانا» ! فنحن ابناؤه بحكم الخلق والتبني ، والميراث الاعظم . ونحن جميعاً في المسيح اخوة . فالله وأبو ربنا يسوع المسيح الذي منه تسمى كل عشيرة ، يرحب بابنائه في كل امة وشعب وقبيلة ، كعائلة واحدة . فمن الواجب ان نقترب منه بروح البنوة

روحا وقورة : لاننا نبدأ صلاتنا طالبين ان يتقدس اسم الله . فنحن اذاً واقفون على ارض مقدسة حين نرفع هذه الصلاة . لان الذي يأتي الى الله

electronic file created by cafis.org

يجب ان يؤمن بانه قدوس. فيجب ان تخشع قلوبنا في حضرته تعبداً واجلالاً : « ليتقدس اسمك »

روحا وفية : هـذا هو محك كل اخلاص . بهذه الروح نتقدم الى ملـكنا مصلين لاجل ملـكوته. فهل نكون أمامه مخلصين ، صادقين، وامناء واوفياء ، أم نكون متمتمين بكلمات عاطلة لا تجدي ؟ حين نصلي قائلين : « ليأت ملـكوتك » يجب ان تكسر كل الانصاب والتماثيل التي في هياكل قلوبنا ليكون المسيح ملـكنا الارفع على عرش القلب الاوحد

روحا خاضعة هذا يقوم باخضاع ارادتنا وتسليمها لارادة الله تسليماً تاماً كما ان الملائكة في السماء ينظرون على الدوام وجه مخلصنا و يتممون ارادته بفرح و بهجة ، كذلك يجب علينا نحن سكان الارض ان نخضع انفسنا ونطبعها وفق ارادته الصالحة المرضية الـكاملة

ان مفتاح سلامنا مع الله ليس في عنادنا بل في تسليمنا لله

روحا معتمدة : «خبزنا كفافنا اعطنا اليوم» . هذه حسب الظاهر ، من أقصر الطلبات لـكنها من أعظمهن . فاذ نطلب من الله الخبز الارضي ، يهبنا فوقه المن السموي، هذه اذاً صلاة الاعتدال والقناعة بما وهبنا الله اياه. قد يدفعنا الفقر الى اليأس والضجر ، وقد يرفعنا الغنى الى البطر والـكبرياء ، لذلك تتجه هذه الصلاة الى اتقاء الطرفين — فكلاهما ان زاد قتل . كي نكون على الدوام معتمدين على الله

حسناً قال ملتبي بابكوك في احدى مواعظه :

« من وراء الخبز ، الدقيق

electronic file created by cafis.org

ومن وراء الدقيق ، المطحنة

ومن وراء المطحنة ، الشمس والمطر

وارادة الآب السماوي »

و بما ان اعمالنا العادية ، وواجباتنا اليومية ، ومشاغلنا المنوعة . لا تخلو من الخطأ والخطية ، فمن الواجب علينا ان نتسلح بروح التو بة والندامة . « أغفر لنا ذنو بنا كما نغفر نحن ايضاً للمذنبين الينا» غير. ان غفراننا للاخرين لا يعتبر أساساً لمغفرة الله خطايانا ، ولا قياساً لها ، لكنه شرط أساسي لها . هذه اقوي عبارة فاحصة في الصلاة الر بانية : ان من لا يغفر للناس ، لا حق له ان ينتظر مغفرة من الله

أغفر لنا اللهم ! هذا هو طلبنا الذي نتقدم به اليك

أغفر لنا حسب كثرة مراحمك

لاننا عليك وحدك اعتمدنا

فكن قوّتنا وحصننا و برنا

أغفر لنا يا حمل الله الجريح

يا من نقضت اوجاع الموت وكسرت ابواب الضريح

أفدِ نفوسنا يا كاهننا الاعظم

وقل لنا كلمة الحل والغفران

ونحن ايضاً في مسيس الحاجة الى الروح الوديعة لنتمكن بها من معرفة ضعفاتنا فنتقي قوة تجار بنا . «لا تدخلنا في تجر بة» . اذا كان قبل الكسر

electronic file created by cafis.org

الكبرياء ، فان قبل الانتصار ، الوداعة المقيمة ، والمحبة الصادقة المخلصة القويمة

لن نستطيع ان نبلغ ذروة الصلاة الربانية الا بروح الثقة ، والظفر ، والتهليل والتمجيد « لان لك الملك والقوة والمجد » . نحن نعلم ان ملكوت الله آت حقاً ، وان قوة الله قمينة بالتغلب على كل الصعاب ومواجهة كل المطاليب ، فاذا انتظرنا بثقة واطمئنان استطعنا ان نرى مجد الله . وكذلك نختتم الصلاة الربانية بحمدله تمجيدية يشترك في التهليل بها جميع المؤمنين.

وهل ننسى ختم الاخلاص : «آمين» !؟ اذا اردنا ان نسبر غور معاني هذه الكلمة العبرية ، وجب علينا ان نتأملها حسبما صدرت من فم المسيح في كلامه اليومي « آمين . آمين — أي الحق الحق — اقول لكم » . فما اكثر ترديد هذه العبارة على لسان المسيح ! وما أجل المواقف الدقيقة التي فاه بها فيها ! أليس هو نفسه « الآمين » (رؤ ٣:١٤) الشاهد الأمين ، لكل صلاة صادرة عن اخلاص ؟! « فصلوا انتم هكذا » الى الاله المثلث الاقانيم ، وبالروح الحق (٢ كو ١:٢٠)

الفصل الثاني عشر

صلوات ربنا

قال أوتو بورخرت : مع ان المسيح هو مثالنا في الصلاة ، وقد سلَّمنا الصلاة الربانية ، الاانه في الصلاة — كما في كل شيء آخر — يمتاز عنا و يسمو فوقنا ، فلا نستطيع ان نجاريه . فلم يصلِّ قط مع تلاميذه في زمرة واحدة ، لكنه كان ينفرد بعيداً عنهم و يصلي . كما انه لا يليق بمثله ان يصلي صلاة العشار بالرغم من كونه قد حبَّبها الى تلاميذه : « اللهم ارحمني انا الخاطىء » لم تلفظ شفتاه كلمة واحدة يُشتمُّ منها روح الاعتراف بالخطأ . ومع انه كان شاعراً على الدوام بوجوده في محضر الله ، الا انه كان يخلو للصلاة تحقيقاً لهذا الشعور . فيه حل كل ملء اللاهوت جسدياً ، ومع ذلك كان يرفع وجهه نحو السماء وهو يصلي. صلى لاجل أحدتلاميذه لكي لا يفنى ايمانه اذا دخل في تجربة (لوقا ٢٢ :٣٢) . إنَّ له صلة ممتازة فريدة بالله لدرجة لا يدانيه فيها سواه . لذلك كانت صلاته مختلفة كل الاختلاف عن صلاة غيره . لقد صلى قائلاً : «لتكن لا ارادتي بل ارادتك» . لكنه صلى ايضاً قائلاً « ايها الآب اريد ان هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث اكون انا لينظروا مجدي الذي أعطيتني» .هذه نغمة التباين الظاهرة باستمرار في صلوات المسيح لانه اله تام وانسان تام . هذا هو الذي ظل الى آخر حياته على الارض متشفعاً في المذنبين ، ولم يكن قط في حاجة الى شفاعة أحد — وما عرفنا عنه

electronic file created by cafis.org

قط انه طلب من تلاميذه ان يصلوا لاجله . فما اعظم الفرق بين صلاة بولس وصلاة المسيح في هذا الباب ! !

ان الجانب الاعظم من صلوات المسيح محوط بشيء كثير من السر والغموض . فالصمت الرهيب يخيم على الثلاثين عاماً التي قضاها في الناصرة لكن من المحقق انها كانت سني شركة مع الله ، وتشفُّع لاجل العالم ، واستعداد لخدمته العظيمة ورسالته الجليلة

مَن علَّم المسيح صلاته الاولى كطفل؟ اي المزامير اليهودية — إن في الصلاة أو في الشكر — كان المسيح يحبُّها اكثر من غيرها ؟

يعتقد البعض ان أحب اسفار العهد القديم الى المسيح ، سفر التثنية ، لانه اقتبس منه اكثر من غيره من الاسفار. وما على المرء الا ان يقرأ بامعان الاربعة الاصحاحات الاخيرة منه حتى يكتشف غني كنوز التعبد والتشفع الكامنة بين ثنايا قصيدة موسى الختامية

و يجمل بنا ان ندرس بتدقيق هذه الكلمات التالية التي دبجتها يراعة جون بيتر لانجى عن صلوات المسيح :

« من غنى بحار صلوات المسيح الالهية ، تندفق اللآلىء الدرية التي تتألف منها صلواته القصيرة المحفوظة لنا في سجل الكتاب . من خلال هذه الصلوات نرى في المسيح أمير البشرية الاوحد حتى في ميدان الصلاة — مع علمنا بانه اخفى عنا الجانب الاعظم منها . ولم يكشف لنا الا الجانب اليسير حسب مقتضيات الاحوال . فاذا شبهنا عمله بشجرة باسقة استطالت اغصانها حتى لامست هدب السماء ، واكتنفت بظلالها العالم أجمع ، فان صلاة المسيح

هي أصل هذه الشجرة . فانتصاره على العالم يُعزى الى عمق شركته مع الله . وفي صلواته تجلت ايضاً حقيقة طبيعته البشرية . فالمسيح باعتبار كونه ابن الله هو الوحي متجسداً . و باعتبار كونه ابن الانسان ، هو الدين متأنساً »

ان اول اشارة في الانجيل ، تربنا المسيح مصلياً ، قد وردت في انجيل لوقا ، حيث نجد القول : « ولما اعتمد جميع الشعب اعتمد يسوع ايضاً . واذ كان يصلي انفتحت السماء ونزل عليه الروح القدس بهيئة جسمية مثل حمامة وكان صوت من السماء قائلاً : «انت ابني الحبيب الذي به سررت» . ثم يقول لوقا بعد هذا «ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة» . فما اعمق حياة الصلاة الكامنة في سني الصمت هذه . وما أجل انتصارات الايمان ، وما اعظم اتعاب المحبة التي شهدتها الناصرة وحدها في هاتيك السنين « الخوالي »

قد أُمسكت عيوننا عن رؤيتك
عند ما وطئت قدماك هذا العالم المليء بالخطية والموت
وفاتنا ان نرى منزلك الوضيع
في الناصرة الحقيرة
لكننا نؤمن بان قدميك قد وطئتا
شوارعها وميادينها يا ابن الله »

يحدثنا انجيل لوقا ، عن حياة المسيح التعبدية ، واحتفظ لنا انجيل يوحنا بعمق التعبيرات التي استعملها في صلواته . يخبرنا لوقا عن الاربعين يوماً والاربعين ليلة التي قضاها المسيح في البرية بعد عماده ، وانه بعد ابرائه كثيرين من المرضى « خرج الى موضع خلاء » (لوقا ٤٢:٤) — ومن

electronic file created by cafis.org

الواضح نه كان مختلياً في الصلاة مع الله . و بعد ان طهر الابرص « وذاع الخبر عنه حتى اجتمع جموع كثيرة لكي يسمعوا و يشفوا من امراضهم » اذا به قد « اعتزل في البراري ليصلي » (لو ٥:١٦) . وفيما بعد نرى اليهود يمتلئون حمقاً عليه متكالمين فيما بينهم ماذا يفعلون بيسوع » لكن يسوع في تلك الايام خرج الى الجبل ليصلي. وقضى الليل كله في الصلاة لله» (٦:١٢) و يعرفنا يوحنا « ان يسوع علم في البدء من هم الذين لا يؤمنون به ومن هو الذي يسلمه » (يوحنا ٦:٦٤و٧٠) من اجل ذلك قضى الليل كله في الصلاة قبل اختيار تلاميذه—ومن بينهم يهوذا الاسخريوطي. حسناً قال بورخرت « هذا الموقف الحاسم قد تطلّب منه تضحية كبرى لانه رضي ان يحتضن «الافعى» طوعاً واختياراً»

ولا شك في أن كاتب الرسالة الى العبرانيين كان عالماً ببواطن حياة المسيح التعبدية عند ما كتب في رسالته عن المسيح قائلاً : « الذي في ايام جسده اذ قدم بصراخ شديد ودموع طلبات وتضرعات للقادر ان يخلصه من الموت وسُمع لهمن أجل تقواه » . ولعل هـذه الروح غير مقصورة على صلاته المعروفة في جثسيماني بل دمغت كل صلواته . و يحدثنا لوقا عن صلاة المسيح لاجل بطرس (لوقا ٢٢:٣٢) . فقد عرف المسيح خفايا القلب البشري وخباياه . فلما علم ان شجاعة بطرس قد خانته مثلما خانته ايضاً عواطفه وقلبه وفكره ، صلى لاجله لكي لا يفنى ايمانه . ولا شك ان صلاة كهذه كلفته جهداً وأنينا . ومن المؤلم ان بطرس كان جالساً حول النار يصطلي في الوقت

electronic file created by cafis.org

الذي كان المسيح متحملاً فيه البصق والجلد : « ولـكنني طلبت من أجلك كي لا يفنى ايمانك »

واذا كانت الصلاة هي زفرة التنهد ، فان هذا الوصف ينطبق على زفرة المسيح التي انبعثت من صدره في قوله : «للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار أما ابن الانسان فليس له أين يسند رأسه» (لوقا ٩:٥٨)

« اطعن نفسي يا رب برؤية آلامك
لئلا اوصد باب قلبي دونك مرة أخرى
ثم تعالَ وتمدد على فراشي الوثير
اذا لم تجد مكاناً تسند اليه رأسك
لان لي اوكاراً وأوجرة ألجأ اليها هارباً
فاطردني يا ربي منها كلها
حتى اجدك في وحدتي وغربتي
خير سلوى لنفسي وخير بيت لقلبي »

لقد صلى المسيح لاجل الصغار (متى ١٩:١٣) عند ما وضع يديه عليهم. وشكر قبل صنعه معجزة اطعام الآلاف ، بصغار السمك وقليل من الخبز (متى ١٥:٣٦) . وكذلك شكر قبل العشاء الرباني (٢٦:٢٧) . ولقد صلى أيضاً قبل « ان تتغير هيئته » على جبل التجلي . فما من أحد كشف سر الصلاة ، غير المسيح . الى هذه الحقيقة يشير بطرس ضمناً في احدى رسائله فملكته الهيبة فاكتفى بالتلميح دون التصريح . والبشائر لم تحتفظ الا باربع صلوات مختصرة وصلاة واحدة مستفيضة،من كل صلوات المسيح :— شكره

electronic file created by cafis.org

المسجل في متى ١١: ٢٥، وشكره الآخر المدوّن في يوحنا ١١: ٤١ــ٤٢، وصلاته الشفاعية المسطّرة في يوحنا ١٧ ، وصلاته في جثسماني ، وصلاته على الصليب «يا أبتاه اغفر لهم لانهم لا يعلمون ماذا يفعلون». فشكره في المرتين المذكورتين، آنفاً ينطق بأفصح لسان ، معلماً ايانا أن المسيح كان على الدوام شاعراً ومتيقناً بصلته الوثيقة بالآب. الى هذه الصلة الوثيقة يُعزى البون الشاسع بين صلوات المسيح وصلوات تلاميذه : فصلوات المسيح فريدة وفذة في بابها كما تبين من شكره في المرتين التاليتين :

« في ذلك الوقت أجاب يسوع وقال أحمدك ايها الآب رب السماء والارض لانك أخفيت هذه عن الحكماء والفهماء وأعلنتها للأطفال. نعم أيها الآب لان هكذا صارت المسرة أمامك . كل شيء قد دفع اليَّ من أبي . وليس أحد يعرف الابن الا الآب . ولا أحد يعرف الآب الا الابن ومن أراد الابن أن يُعلن له »

«ورفع يسوع عينيه الى فوق وقال أيها الآب اشكرك لانك سمعت لي وانا علمت انك في كل حين تسمع لي . ولكن لاجل هذا الجمع الواقف قلت ليؤمنوا انك أرسلتني»

قال بورخرت في هذا الصدد :

كانت صلاة المسيح الصدى اللازم لصوت الله الذي كان يسمعه منه على الدوام لقربه الوثيق منه . فكانت صلاته تتمشى جيئة وذهاباً مثل الوشيعة ، بينه و بين الآب .... وعلى ضفاف بحيرة جنيسارت، ربما لأول مرة ــ والمرة

electronic file created by cafis.org

الوحيدة اتخذت الصلاة تعبيراً مسموعاً واستحالت من مجرد الكيان الى فعل ذهني باطني — هو في الآب والآب فيه »

لا يمكننا أن نسبر غور حياة المسيح التعبدية لكننا نقف أمامها خاشعين متعبدين . فاذا ما دققنا البحث في صلاته التشفعية الكبرى وجدنا أنفسنا أمام ارض مقدسة . ويلوح لنا ان انجيل يوحنا هو فَرمان التصوف المسيحي . لان الشخص الذي اتكأ على صدر المسيح حقيق بان يصل الى عمق معاني التجسد . ولقد أصاب أريجانوس اذ قال : «ما من أحد يفهم هذه الصلاة الا مؤلف هذه البشارة، لانه اتكأ على صدر يسوع»

في هذه الصلاة التشفعية العظيمة ، تتجلى لنا مقاييس التشفع — الطول والعرض والعمق والعلو . قال جون نوكس لزوجته قبل وفاته ببضع ساعات : « ابحثي عن مكان ألقي فيه أول مرساة لي » . فاجابته الى طلبه وقرأت له الاصحاح السابع عشر من انجيل يوحنا. وحسناً فعلت ، لان هذا الاصحاح خير صخرة نلقي عليها مرساة نفوسنا ، لانها مؤتمنة وصادقة غامرة بالمواعيد العظمى الثمينة

هذه الصلاة موجهة من الابن الى الله الآب بواسطة الروح القدس . فكلمة «الآب» ذكرت فيها ست مرات ،ووردت مرتين مقرونة بالكلمتين: « قدوس » و « بار » . وتقسم هذه الصلاة بوجه عام الى ثلاثة اقسام. القسم الاول يتعلق بالمسيح نفسه (١٧: ١ — ٥) والقسم الثاني يتعلق بتلاميذه (١٧: ٦—٩) ، القسم الثالث يتعلق بكنيسته (١٧: ٢٠—٢٦) . في القسم الاول طلب المسيح الى الآب ان يمجده بالمجد الذي كان له عنده قبل كون

العالم . وفي القسم الثاني صلى لاجل التلاميذ باعتبار كونهم أداة في يده لتنفيذ قصده واتمام رسالته في العالم . وفي القسم الثالث، وقد رأى افق الخدمة يتسع أمام تلاميذه حتى يشمل العالم كله ، رفع صلاة لاجل جميع المؤمنين في الحال والاستقبال « كي ينظروا مجده الذي اعطيه من الآب ... وليكون فيهم الحب الذي احبه الآب به و يكون هو فيهم » . ولقد صدقت فراسة الاستاذ وليم كرفر، الذي نظر الى هذه الصلاة من وجهة اخرى ، فرآها برمتها صلاة تبشيرية

ها قد أتت الساعة الفاصلة التي يقدم فيها المسيح نفسه كفارة عن العالم ، و يظهر فيها محبته الظافرة على الخطية والشر . ولان الآب قد اعطى الابن سلطاناً على كل جسد ، فهو اذاً يستطيع ان يهب الحياة الابدية لكل المؤمنين باسمه . ومتى عرف العالم اسم المسيح وحقيقته ، تم بذلك العمل الذي وضعه المسيح على عاتق تلاميذه . « المسيح غرس في حياة البشر وأذهانهم طبيعة الله ورسالته — هذه هي البزرة التي تنبت وتنمو فتصبح شجرة كبيرة » . صلى المسيح لاجل القطيع الصغير من تلاميذه كي يحفظوا في الايمان والاتحاد ، ليؤمن العالم بالمسيح . « كما أرسلتني الى العالم ، كذلك أرسلهم أنا الى العالم » . فالتلاميذ هم منقذو برنامج ارسالية المسيح ، لان عليهم ان يحملوا رسالته بروحه و يتمموا شركة آلامه . من أجل هذا نرى ان هذه الصلاة تضم جميع الذين سوف يؤمنون بالمسيح — ذلك الجمع الحاشد الغفير الذي رآه يوحنا في رؤياه شعباً لا يعد

في تلك اللحظة الرهيبة ، فاض قلب المسيح بآماله ، واشواقه ، وتمنياته وانتظاراته ، ومقاصده ، فقال :

electronic file created by cafis.org

« ايها الآب البار ان العالم لم يعرفك . أما انا فعرفتك . وهؤلاء عرفوا انك انت ارسلتني . وعرفتهم اسمك وسأعرفهم ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به واكون انا فيهم » (يوحنا ١٧ : ٢٥ — ٢٦)

بعد ان قدم يسوع المسيح هـذه الصلاة ، خرج مع تلاميذه الى عبر وادي قدرون حيث كان بستان دخله هو وتلاميذه — وهناك نراه ايضاً مصلياً . ونغمة الظفر التي تجلت في صلاته التشفعية قد استحالت الآن الى أنين وجهاد في الصلاة. فالفردوس الذي اضاعه الانسان بعصيانه في البستان ، قد استرده ابن الانسان بطاعته حتى الموت موت الصليب . هـذا هو مجد بستان جثسيماني الذي أشار اليه روديارد كبلنج بقوله :

« كان آدم بستانياً . والاله الذي خلقه قد رأى فيه ذلك
فعلم ان نصف عمل البستاني الصحيح ينجزه وهو على ركبتيه
وكذلك عند ما يتم عملك . اغسل يديك وصل .
لـكى لا يذهب عنك مجد البستان
ولسوف تتحقق ان مجد البستان لن يزول »

وقد استطاع سدني لينر ان يوقع نغمة أعلى واوضح في تفسيره مجـــد جثسيماني. ولعلك تذكر انشودته التي مطلعها: «الى الغابات مضى سيدي» لـكن لوقا الطبيب والفنان المبدع، قد وضع نغمة أعلى وأسمى من الـكل حين قال:—

« وانفصل عنهم نحو رمية حجر وجثا على ركبتيه وصلى . قائلاً يا أبتاه ان شئت ان تجيز عني هذه الـكأس. ولـكن لتكن لا ارادتي بل ارادتك وظهر له ملاك من السماء يقويه . واذ كان في جهاد كان بأشد لجاجة وصار

electronic file created by cafis.org

عرقه كقطرات دم نازلة على الارض » (لوقا ٢٢ : ٤١ — ٤٤)

و يخبرنا متى ان هـذه الصلاة تكررت ثلاث مرات . وان يسوع خر على وجهه أثناء صلاته في البستان. بينما قد اكتفى يوحنا بالتلميح، عن التصريح في هذه الصلاة بالذات. هنا بدء وحشة آلام المسيح التي توجت حياة الناصري على الارض : « كلكم تشكون فيّ في هذه الليلة » هذا هو انذار الخطر . وعند ما بدأ المسيح يحزن و يكتئب ، اذا بالذين كان ينتظر منهم ان يسهروا معاً، نتثقلوا بنوم عميق. فواجه المسيح ظلام هذه الساعة الرهيبة وحيداً منفرداً وصرع المجرب وحيداً منفرداً ، وصلى ثلاث مرات وقام ظافراً منتصراً، وحيداً منفرداً . هذا هو الدرس الذي يلقيه علينا

« يا من تشعر بقوة المجرب
ادخل الى جثسيماني في الظلام
وانظر صراع فاديك ضد العدو
واسهر معه ساعة مريرة واحدة
ولا تعرض عن آلام سيدك
بل تعلم منه كيف تصلي »

حسناً قال توما القمبيزي : عند ما تبلغ الدرجة التي تستعذب فيها الضيقات وتستطيبها لاجل خاطر المسيح ، سر اذاً وابتهج لأنك قد وجدت الفردوس على الارض . لان بقبولك الآلام وخيبة الآمال بسرور و بهجة قلب ، قد قبلت شركة آلام ذاك الذي صلى قائلاً : « ليس كما اريد أنا بل كما تريد أنت » . . . «فظهر له ملاك من السماء يقويه »

electronic file created by cafis.org

وهنالك صلاة اخرى مختصرة مسطرة في الانجيل عن مخلصنا ، هي صرخه على الصليب « الهي الهي لماذا . . . . » المتبوعة بكلمته المطمئنة الهادئة : « يا أبتاه في يديك أستودع روحي »

« ولما مضوا به الى الموضع الذي يدعى جمجمة وصلبوه هناك مع المذنبين واحداً عن يمينه والآخر عن يساره » . هـذه أولى كلماته السبع على الصليب وهي اعظم تعبير عن المحبة الفائقة المعرفة والغفران الذي تخطى كل حدود، والمعرفة الالهية لجهالة البشر وغباوتهم وخطيتهم،والرحمة السرمدية التي تضم الجميع . فحيثما كثرت الخطية البشرية وتخطت الحدود ، فاضت النعمة الالهية وتخطت كل حد . يا لعمق غنى حكمة الله ورحمته الظاهرتين في هذه الصلاة الشفاعية المختصرة . عند بدء الصليب وعند نهايته ، خاطب يسوع الله بقوله « يا أبتاه ! » فالمسيح الذي كان متمتعاً على الارض بسلطان مغفرة الخطايا ، طلب عند الصليب مغفرة خطايا كل الذين اساؤا اليه بتكرارهم هذه الخطية على مر الاجيال . انهم لم يعرفوا ماذا يفعلون ولا من هم يطلبون ، « لانهم لو عرفوا لما صلبوا رب المجد » (١ كو ٢:٨)

و بين الـكلمات السبع التي فاه بها المسيح على الصليب ، كلمتان تُحسبان طلبتين . أولاهما (حسب تعبير مسز براوننج في ختام مرثيتها على قبر كوبر)

« . . . توسطت خطايا آدم بين الابن البار و بين الآب
فصرخ عمانوئيل صرخة هزت أركان العالمين
قائلاً في وحشته « الهي أحقاً قد تركتني » ؟
فصعدت هذه الصرخة من فم القدوس لاجل خليقته الساقطة

electronic file created by cafis.org

لـكي يفدى الخطاة الساقطين من هذه الصرخة الموحشة ! ! »

وحالاً بعد هـذه الصرخة المرة التي لا يمكننا ان نسبر غورها، جاءت تلك الـكلمة الختامية : « يا أبتاه في يديك أستودع روحي »

وهـكذا انقضت حياة المسيح التعبدية على الارض فاتصلت حلقاتها بخدمته التشفعية في السماء، التي يقوم بها مذ صعد عن يمين العظمة في الاعالي «لانه حي يشفع فينا» . ولانه شاركنا في اللحم والدم، يعرف جبلتنا و يذكر أننا تراب — من ثم يستطيع ان يترفق بالجهال والضالين

نعم لا نعلم ما نصلي لاجله كما ينبغي . لـكن الروح يشفع فينا بأنات لا يُنطق بها . فعلى ضوء صلوات المسيح نستطيع ان نفحص صلواتنا . فاذا كنا لا نقضي وقتاً كافياً في العبادة ، واذا كانت عظمة محبة المسيح وجلاله لا تستأسر نفوسنا ، فلنتعلم كل هذا من المسيح ، فنصلح طرقنا

اذا فقدنا الرغبة الملحة ، والتعطش القوي الى تخليص النفوس وتبريرها، فلنتعلم ذلك من المسيح . واذا كانت صلواتنا لاجل الآخرين صورية وهمية واذا قلّ اهتمامنا بغيرنا،وفترت همتنا في الصلاة لاجل الجنس البشري. فلنذكر ساعات الليل التي كان المسيح يقضيها في الصلاة

واذا ضاقت دائرة الذين نصلي لاجلهم ، ووقف نموها على مر السنين ، فلنتعلم من المسيح بدراستنا صلاته التشفعية العظمى لاجل الملـكوت . عندئذ نستطيع ان نركض في سبيل وصاياه لانه يرحب قلوبنا بواسطة الصلاة لاجل الآخرين

« يا رب علمنا ان نصلي »

electronic file created by cafis.org

electronic file created by cafis.org